البحـــث عــن العظـــــام

رواية بقلم : الطاهر جاووت
ترجمة   جيلالي خلاص

القسم الأول

كانوا يتحايلون دوما ، كي يصلوا القرى المختلفة التي يعبرونها ، في أشد ساعات النهار قيظا وقت يسحق سندان الحر الصراصير فتخلد لسبات عميق ملتصقة بقشور أشجار المران. كان بمقدور المرء أن يقترب منها فيمد يده ويمسكها قبل أن تتفطن للأمر . غير أن الناس كانوا جميعهم يجلسون ههنا في نعمة ظل المساجد . كان خشوع اللحظة قد أطار القيلولة أينما كانت . كلما مر أحدهم ، يلكز حمارا أتعبه الذباب ، استكف أحد الشيوخ وسأل عن هويته فيرد عليه عجوز آخر وهو لا يفتأ يلوح بوهن بمروحته المصنوعة من ورق مقوى مغروس في قصبة أنه سعيد أوقاسي من قرية إيقوجدال " أو " يبدو لي أنه نجل علي مدال من دوار لغريب.

ومع مرور بضعة أيام ، لم يعد التعرف على الجميع ممكنا . كانوا يأتون من كل صوب وحدب ــ أحيانا ، كانوا مراهقين حديثي البلوغ ، ما يزالون يجهلون حتى عبارات التحية المألوفة للتسليم على الجلوس . كانوا يمضون وقد احمرت وجوههم من الحرج أو من الحرارة ، لاكزين ، بلا سبب ظاهر ، حميرهم لكزات حادة بالأشواك وأحيانا ، لم يكونوا حتى يترجلون عن دوابهم لحظة عبور ساحة الجامع ــ يا لقمة الوقاحة كانوا صبية لا يدركون شيئا من أمور الحياة ، بيد أنهم كانوا يمضون لنبش سجلات الموت قصد مخاصمتها بشأن الهياكل العظمية التي

يحتاجها الأحياء لتخفيف بهرج أشد الخيرات رعونة وبعد أن أنعم بها عليهم العالم الجديد .

انتهت الحرب ، فأقام الشعب (زردة) جنونية ، تزاحمت فيها بلا هوادة خطب لا تنتهي عن الوطن والأخوة وأنيرت في كل مكان مشاعل عملاقة إعلانا لاسترجاع سيادة النور وإرساء كرم غير محدود يجعل متاع كل امرئ متاع الجميع حتى التزمت الذي لا يقهر بحكم رسوخه على مر قرون ، طار شظايا . فإذا خيم الليل بظلامه ، اجتمع الناس في أحد المنازل الجبلية القصيرة الأبواب وراحوا يتجاذبون أطراف حديث الحرب بينما النساء تغنين في مجموعات رباعية ، دائرات حول أنفسهن حتى ينالهن الإرهاق .

ثم يتوقف الجميع برهة وقد أرهقته الرقصات والسهرات واللغو الهادر ، فامتد التفكير إلى أولئك الذين لم يعودوا من هذا العالم وكما لو انصاع الناس لأمر مفاجئ ، قاموا بوضع البرادع على حميرهم وبغالهم وأخذوا رفشاتهم ومعاولهم وانطلقوا ينقبون عن رفات أمواتهم لمنحها مراسيم دفن تليق بمكانة مواطنين أسياد كان ذلك الموقف موقفا مشحونا بالإخلاص والتفاني . كان بمقدور الشعب أن يقيم حاجزا يفصل بينه وبين الماضي لتحصين سعادته الجديدة . كان بامكانه أن يرمي موتاه مع الماء النتن لحمام الحرب حتى يستمتع وهو مرتاح الضمير بتلك الطمأنينة التي اكتسبها بثمن غالي . لكم الشعب كان متشبثا بموتاه كتشبثه بدليل قاطع يمكنه استظهاره يوما إذا ما ولى الزمان ونكث البشر العهد . بردعت الدواب وأمرت الأرض بالرضوخ للجرد حتى تسلم آخر قطعة من الجثث التي التهمتها .

لم ينطلوا جميعهم في نفس الوقت وإنما مضوا على دفعات مثنى أو رباعا . كان أولئك الذين يملكون أدق المعلومات قد انطلقوا في اليوم الأول أما الذين لم يسعفهم حظ المعلومات كثيرا ، فقد لزموا الانتظار حتى تأتيهم الأخبار بآخر علامة مميزة أو بشارة واهية إلى معركة صغيرة تكون كافية ليتسلحوا للسفر والحفريات. كانت

الحرب قد نثرت ضحاياها في أرجاء بلد شاسع كالبحر . لأول مرة يغادر الناس شعاب جبالهم وفرق قراهم ويمضون للبحث عن موتاهم في السهول الجرداء والحقول الخصبة الشاسعة والمدن المزدحمة والوهاد العارية كالحجارة . وهكذا ، سيكتشفون خيرات لم تخطر ضخامتها وروعتها برؤوسهم أبدا ، كما سيرون أشياء لم يكونوا يعرفونها لتعدد وظائفها الغريبة ويلتقون أناسا يتكلمون لغة أخرى.

لا ريب في أن الواجب يدعو إلى الرجوع إلى تلك الفكرة المملوءة بالإصرار والتفاني التي أشيعت بشأن القرويين ، فغالبا ما أعيد النظر فيها بعد مرور الزمن ، حتى أن بعضهم ذهب إلى القول أن سكان الجبال يكادون ينكرون موتاهم نكرانا نهائيا ــ بالرغم من يقظة أحد القادة العسكريين لجيش التحرير ، ذلك الذي كان يضع على رأسه خوذة استعمارية ويخطب طوال اليوم خطبا فياضة عن المدنس والمقدس ، عن الشجاعة والجبن ، عن الحلال والحرام . وذات صباح ، جمع كافة القرويين في ساحة القرية ، ودون أدنى تمهيد ، أفرغ على وجوههم المتعطشة للأنباء أشد المؤامرات مبالغة ، ناقدا بحدة أنانيتهم وتماديهم في النسيان ، لائما إياهم على كونهم لم يفكروا أبدا وهم في جنون احتفالهم في أولئك الغائبين الذين يدينون لهم بكل شيء . لم ينتظر سكان القرية الهلعون أن يكرر لهم ذلك ثلاث مرات . قاموا بتحليس حميرهم وتزودوا بالزاد للترحالات الطويلة (أطول الترحالات ، الأسفار) . كان الفصل ملائما للسفر . صحيح أن الطقس كان حارا نوعا ما نهارا ، غير أن برودة الليل اللطيفة المنعشة كانت تغني عن البيت والسرير . كان يمكن للمسافرين أيضا ، حين يشتد العطش والجوع ، أن يتوقفوا وسط بستان من التين والكروم وأن يجنوا ما طاب لهم ، إذ كان الكرم الذي انتشر في جميع ربوع البلد يلغي كل إشكالية .

أتــعس البحاثة من أهل القرى ، كان أولئك الذين صادف وأن مات شهداؤهم في أمكنة قصية إلى درجة أن البحث عنهم كان يتطلب قطع البلد كاملا ، سهلا يمتد

كنهار صيفي لا يرحم ، وجبالا أخرى أيضا أوعر من جبل مسقط الرأس وأصلع من طريق محجر يفضي في النهاية إلى منطقة صحراوية تشبه جهنم التي لا ترحم ، تلك التي وعد بها الكتاب المختوم زمرة الكفار . هنا ، لم يكن هناك لا شجر للاستظلال تحت أغصانه ولا نبع لإطفاء الظمأ ولا تين ولا عنب لسد الجوع . أولئك الذين بعد شهور وشهور حكوا عن أماكن غريبة يصعب على العقل تصديق وجودها . أرض حمراء قانية أو رملية ، حرارة قادرة على سلق الأغذية ، العقل الذي يتيه فجأة ويغرق في سراب ملؤه مروج وجداول عذبة المباهج لا وجود لها إلا في الأحلام . تحدثوا أيضا عن الناس النادرين الذين التقوهم ، ناس هدوؤهم عجيب وضيافتهم لا مثيل لها.

لكن أغلب الباحثة لم يذهبوا بعيدا جدا . لم يغادروا البلد الجبلي إلا نادرا . كانوا يغيبون يوما أو يمين لا غير ويعودون منتصرين مرتاحي البال إلى الأبد وقد حملوا في قربة أو كيس خيش عظاما تطقطق زاعمين أنها عظام أب أو أخ أو ابن طيب.

كانت المقبرة التي أعدت بعناية كبيرة لرفات هؤلاء الأبطال تسلب العقول بحيث أن العديد من الشيوخ كانوا يحلمون في غبطة كبيرة بموت رحيم يهدهدهم بجوار هذه الرفات السعيدة . أجل كانت المقبرة تسلب العقول " رابية بأكملها تطل على البحر جردت من أشجارها وأحيطت بسياج جديد . كانت تلك القطعة الأرضية التي أعدت مقبرة أحسن موقع في القرية . لم تكن لتخفى على نظر أي مسافر يمر بالمكان. موتانا أحسن استحقاقا منا ، كان القرويون يفكرون ، فهؤلاء الموتى هم أفضل من يمثلنا في نظر كل من يمر من هنا فيسأل عن هويتنا .

كانت قوافل البحاثة تأتي من قرى متفرقة ، غير أن كل تلك التي كانت تتجه صوب الغرب كان أصحابها يسيرون مترافقين خلال مدة ما . كان الطريق الذي يتبعونه طريقا معبدا شقه جنود الاحتلال لدباباتهم ومجنزراتهم . فالطريق المذكور ينحدر من جبل عال راسما تعرجات ثم يتدفق كجدول هادئ بين قرى متقاربة الموقع : أيدسن ، تباعرورت ، إيغيل مهدي ، أولمو .عند منعطف القرية ، كان الأفق

يتمزق كاشفا البحر الأزرق المجلو. وحين ينزل الطريق قليلا في ظل أشجار السرو والصفصاف مستقيما موازيا البحر القريب وقد راحت أمواج هذا الأخير تزفر زفرات تدغدغ الآذان ، تمر القوافل بقرى تيغزوين وأقوني ووندلوس وأبرون الصعبة المداخل لوعورة الطبيعة . كان المارون يرون تلك القرى من الطريق فيروحون يتساءلون كيف يمكن سكانها الصعود إلى بيوتهم أو بلوغ هذا الطريق الموازي للبحر لقد كانت تلك القرى أعشاشا حقيقية للرخامات وقد كللت بأحمر سقوفها صخورا ضخمة يصعب صعودها . إن المرء ليخطر بباله وهو يتأملها أنه يكفي الطيران من أعاليها بضع مئات من الأمتار للوصول إلى البحر .

كان الصيف في عز أيامه القيظية . بحيث أن المرء يخيل إليه أن الشمس اقتربت قليلا من الأرض حتى كادت أن تحتك بالأعشاب التي جفت فاسمرت . كانت الحرارة تعلن عن النهارات القيظية بإشعاع واسع يضيء الجهة الشرقية عند كل فجر. ثم يبدأ غليان السماء يتصاعد ببطء إلى أن يبلغ تلك الدرجة القصوى من البياض الشبيه بالعظم العاري وتنحني أشجار المران الباسقة . كان الشيوخ يلتصقون كالرخويات بجدران الجامع ، ويروحون يتربصون بالنسائم المنفلتة من قلب الصخر أو تلبيسة الجدران الإسمنتية وقد فتحوا قشاباتهم أو عباءاتهم عن صدور جافة أو مزغبة . كان أولئك يتنفسون بصعوبة كالدجاج الذي لفحه الحر فراح يمتص النسمات النادرة من الجو . لعل أفضل ما يوحى به إلى المرء في مثل هذه الحالة أن يبقى في بيته يتمتع بقيلولة مريحة ، غير أن الناس لطول ما طردوا من الفضاء الخارجي على أيدي جيش الاحتلال الذي ضيق أفقهم أيما تضيق خلال تلك السنوات الرهيبة من الحرب ، كانوا يفضلون الجلوس ههنا تحت الجدران معرضين أنفسهم لهبات القيظ اللافحة كي يستعيدوا كل ما حرمتهم منه تلك الحرب مدة طويلة كتلك التي عاشوها منكمشين أو مختبئين تحت الصخور علهم يتجنبون قذيفة أو رصاصة غادرة كانوا يريدون أن يستعيدوا بعيون جاحظة وأيادي مبسوطة ورئات مفتوحة المناظر الخلابة ولو كانت سرابية والاستلهامات اللذيذة ولو كانت خيالية لفترة شبابهم التي حرموا من التمتع بها ، كان المرء يأكل بملء

أسنانه ويتلذذ من أعماقه من زرقة السماء المتراقصة وخضرة الأشجار اليانعة ولزاجة النسغ الساخن المترقرق من جذوعها وتلألؤ مرايا الجداول والسواقي المتثعبنة ورائحة اسمرار الأعشاب وقد راح قيظ الصيف يشوي وريقاتها الغضة .

قليل من البرودة كفيل بلا شك بانقادنا من الذباب الذي كان يلسعنا لسعات أقسى من لفحات الحر النازلة من السماء . هذه الحشرات لا تنسى حتى التهديد بنشها . إنها حبات رصاص حقيقية تحفر الجلد حفرا متصلا . ذاك هو جرح الصيف الحقيقي الذي لا يبرأ . الرعب الذي يرهب الحيوانات والشيوخ وقد دوخهم النعاس وان كان هؤلاء ليسوا معرضين لرعب الذباب فحسب إذ يعانون من مضايقات الصبيان الطائشين . فالحرية (التي استرجعها البعض واكتشفها البعض الآخر لأول مرة) كانت قد قلبت تقاليد البلد رأسا على عقب . فأنا ، مثلا ، ابن الرابعة عشر التي تطل من وراء الخريف المقبل ، لم يكن أحد يتوقع قبل شهور قليلة ، أن أجالسة الشيوخ في الجامع .كانت جلساتهم ممنوعة منعا باتا عن الأطفال أمثالي . والواقع ، لم أكن أفهم ذلك ، أذ وجدنا أننا لم نتعلم من تلك الجلسات أي شيء إضافي على الإطلاق مما سبق وتعلمناه .

الأمر بسيط في الحقيقة . فالشيوخ حساسون ولا يتحملون هذا الشباب الصاخب الذي يذكرهم بالتأكيد في كل لحظة أن الموت قدر محزن ــ بالرغم من جميع مزايا الثواب والفردوس التي وعد الله بها المؤمنين في الآخرة ــ نحمدك ربنا العلي العظيم على نعمة وجودنا في دائرة المؤمنين . بيد أن الشيوخ لم يكونوا ليرتاحوا حتى وأن كانوا قد مروا بتلك الفترة العصيبة من الحرب حيث كان الموت أمرا عاديا يهدد أيا كان . كانوا يعلمون أن موتهم هم هو أتعس موت وأتفهه . موت شكلي لا يخدم أحدا ولا يدر دمع أحد إذ أنه موت لا يستحق تلك الاحتفاءات الصاخبة الصارخة التي تثيرها كل يوم لدى الأحياء ذكرى ذلك الشباب الذي

حصدته الحرب في ريعانه . موت سيجعل من رفاتهم التعيسة شيئا آخر يختلف عن رفات أولئك الشهداء التي تتزايد فخامة تأبينها كما تتوالد القصائد التي لا تنتهي أبياتها . إذا ، فالجامع هو كل ما تبقى لهم ، لذلك ، يصرون على أن لا يقلق أحد نعاسهم وراحتهم مثلهم مثل تلك الضفادع التي ورثوا عنها بشراتهم الخشنة المجمدة .

لقد خلقت العادات الجديدة المنتشرة في القرية شعورا بالحرج لا يطاق لدى الشيوخ . فقد صارت الأحاديث التي تدور في الجامع تتعرض دوما إلى مصير أولئك الشباب الذين سقطوا في ميدان الشرف في الوقت الذي كان الشيوخ ينكمشون كخرق نتنة يعيرها كونها بقيت على قيد الحياة بينما وارى التراب منذ سنوات مثل تلك الفتوة ومثل تلك المكارم . كان أولئك الذين فقدوا ابنا أو حفيدا بوطأة الرصاص يشعرون بذنب أكبر ، ألم يكن باستطاعتهم هم الجبناء ، الأنانيون ، الأولياء المخزيون أن يواجهوا الموت بأنفسهم هم الأوائل كما تلزمهم الطبيعة بذلك؟ أو ليس هم الذين تعودوا أن يكرروا دوما وهم يعتقدون بنفاق كبير أنهم مالكو الحكمة ، التي لا يحترمونها حتى مجرد الاحترام ، إن من ولد الأول يموت أولا !
ورغم ذلك فهناك شيوخ أحبهم كثيرا ولا يستحقون البتة هذا المصير الشبيه بمصير الكلاب التي تجلد فلا تحرك ساكنا . فهناك ، مثلا ، حند أوزروق ، الرجل المائع المحمر الطلعة الذي يقص على الشباب حكايات مليئة بالهزل والسذاجة ملتفتا يمنة ويسرة حتى يتأكد من أن الشيوخ لا يسمعونه . كان يملك ، قبل الحرب كوخا خشبيا يقع قرب الطريق غير بعيد عن القرية ، حيث كان يبيع فيه أنواعا من الأشياء وخاصة أقمشة النساء .

عندما كان الشيوخ يلتقون خلال تلك الأيام في الجامع تختلط عليهم الأمور إذ لم يكونوا يجدون ما يتحدثون فيه . كانوا يأتون على الأحاديث المتصلة بالأشياء الخالدة التي تكون الحياة . الحرارة ، الليل ، الماء ، الفواكه، الحصاد ولطالما

عمتهم غبطة تدبير مكيدة للذباب أو سعادة الإحساس بارتفاع خفيف للحرارة ، الموضوع الداعي إلى تطويل تعاليقهم ثم ينتصر الصمت من جديد قامعا كل حركة شفاه ، فأرى الشيوخ يحركون رؤوسهم ويتنفسون مثل ضفادع توشك أن تتحول إلى حيوانات بشعة. ألم يبق في الناس قليل من الإنسانية إذن؟ ألم يبق هناك أي إحساس بالشفقة يدفع إلى أن يأخذ بيد شيخ عاجز ويرويه بكلمات مطمئنة تجعله يشعر أنه مازال يملك مكانا شرعيا في هذه الدنيا؟

كلا إن حند أوزروق لا يقبل المصير المخصص للشيوخ. فهو يخاصم من يريد ويواجه أيا كان من أولئك الرجال المسلحين المبجلين الذين يفرضون رهبتهم على الجميع ويروح يحكي عن النساء وعن بعض المواضيع المحرمة بحرية يصعب فهما في هذه القرية ذات الأخلاق المستقيمة ، حيث لا يجرؤ الناس على العطش بصفة متفردة.

أما رفيقه رابح وعلي ، فهو أولا رجل أصغر منه سنا بكثير ولكن في نفس الوقت أكثر تعقيدا . صحيح أنه يمزح ويقهقه بين الفينة والفينة في وجه أولئك الذين يعتقدون أنهم ذوو أهمية غير أنه يعرف كيف يضبط نفسه ويصالح خصمه كلما تأزمت الأمور . كلماته أقل جرأة وصراحة من تلك التي يتفوه بها حند أوزروق، إلا أنني أحب فعلا نكته وطريقته في قلب مجرى حديث جدي كما يرغب هو .

عندما أخبرت أنني سأذهب مع رابح وعلي ، لم أر بأسا في ذلك . صحيح أنن كنت أفضل رفقة حند أوزروق في ذلك السفر الطويل ، غير أن كبار القوم يقدمون أحيانا على اختيارات لا يمكن فهمها.

لم أكن أعلم أنني أنا كذلك معني بالسفر . والواقع ، أنني لم أكن أشاهد عدة مرات تلك القوافل غير المنتظمة التي يختلط رجالها بحيواناتها وسط نفس الغبار المشوه لم أكن أفكر أبدا أنني سأنضم يوما بنفسي إلى نابشي القبور أولئك.

هل صار أخي الذي سقط في ميدان الكفاح منذ ثلاث سنوات ، مجرد عرام " عظام يمكن الاستشهاد به هو أيضا؟ كنت أعتقد أن أمي وأبي كانا يرأفان به ويحترمانه أكثر . كنت أعتقد أن حبا حقيقيا قد يوجد في زاوية أكثر راحة من هذه الجبال الوعرة ويمكنه (الحب) أن يقاوم جنون النبش و(التجييف) الذي استولى فجأة على هؤلاء البشر تجاه فلذات أكبادهم التي طالما أحبوها حبا جما . غير أن كل عائلة وكل شخص كان بحاجة إلى كمشته الصغيرة من العظام لتبرير التطاول والتهيب اللذين سيطبعان سلوكاتهم المقبلة في ساحة القرية . إن هذه العظام تشكل تمهيدا قويا لكومة الأوراق والشهادات والبيانات المختلفة فتفرض قانونها الصارم . ما أتعس الإنسان الذي لن يكون بحوزته لا عظاما ولا أوراقا يستشهد بها أمام عنجهية بني جنسه! تبا لمن لم يفهم أن الكلمة لم تعد تساوي شيئا وأن زمن " إبرام العهد الشفوي " انقضى إلى الأبد ّ

ولما لن نكن نملك دابة ، تفضل علي أوماوش بوضع دابته تحت تصرفنا . كان موقفه هذا أعجوبة لم أفهمها ــ والحق يقال ــ إذ من عاداته أنه يتمسك بدوابه أكثر مما يتمسك بأولاده . غير أنني سرعان ما قلت في نفسي أن هذا الزمن المملوء بالحماس والجنون السعيدين يكون قد غير فعلا العديد من تصرفات الناس وعواطفهم ! ومهما يكن فاعتزاز أوماوش بحميره شرعي تماما، إذ كان يملك دوما أجمل الحيوانات في القرية ، فقد كان يتفنن في العناية بها فيقص سبيبها وذيولها بطريقة جميلة ويقشط زغبها حتى يصير براقا فضلا عن تلبيس حوافرها على الدوام بتسامير جديدة طقطاقة ، حتى الأسماء التي كان يطلقها على دوابه تنم عن حب كبير لها فهذا ؛ طيكوك وتلك بوريش وذاك محند ناث امحند معتمدا في ذلك على طول الدابة أو جمال شعره أو سرعة خبوه . كان من عاداته أن يسوق حميره عبر الأزقة الوعرة للقرية ناهرا إياها بقوله أررر .. ربي يصنعك حصان لذلك ، لم يكن أحد من سكان القرية ليجرؤ على شراء حمار أو بغل دون اللجوء إلى استشارة علي أوماوش والسماع إلى نصائحه التي لا تخطئ هدفها أبدا .

لقد تفضل إذن بوضع حماره تحت تصرفنا ، غير أنه اقتفى أثره حتى مدخل بيتنا وهو متخوف وراح يتحقق من الوضع السليم للبردعة على ظهره دون أن ينسى إلقاء نظراته الفاحصة على التسامير والصريمة وروابط البردعة ، مالئا في ذات الوقت آذاننا الصاغية بنصائحه وإرشاداته ودعواته . كانت تلك الكلمات والحركات الصادرة عن أوماوش تخوفات حقيقية كتلك التي تبدر عن أم حنون تجاه ابن عزيز ومدلل ومقابل ذلك ، أبدينا له ضمانتنا وأشبعناه وعودا وردية .

سرعان ما أتضح اختيار رابح وعلي لمرافقتي ، إذ توجب علي أن أطلع على أن رابطة قرابة بعيدة تربطنا بحيث أن والدي تمسكا بلا ريب باستغلال هذه العاطفة التي لا ينمحي تضامنها المنسوج بالدم في تقاليد سكان الجبال ، خفية أن يمضي الرجل إلى مثواه الأخير مثله مثل العديد من العادات التي كان الجميع يعتقد أنها متجذرة في النفوس إلى الأبد .

كان علي أوماوش قد راقبنا حتى آخر حركة لاستعدادنا . كان يخشى أن نثقل على حماره الحمل ولذلك ، اكتفينا بمتاع خفيف وزاد ضعيف مجرد رفس ومعولين وكيس خيش وقمطرين وضعنا فيهما بعض الأرغفة من خبز الشعير وبعض الكرطوس (التين الجاف) زيادة على قصديرة لبن . ومع ذلك ، فقد كان علي أوماوش متخوفا متوجسا فلم يسعه إلا أن قدم لنا آخر إرشاداته : ألا تركب حماره لمسافات طويلة وإن كان يحس في أعماقه أن ذلك لن يجدي نفعا .

كان من عادة سكان الجبال إذا عزموا على السفر بعيدا يستيقظون باكرا عند بزوغ الفجر ، قصد كسب أطول ما يمكن من زمن قبيل اشتداد الحر بيد أن الوضع الجديد للبلد غير حتى التقاليد الأكثر تجدرا في النفوس وحتى الحركات الأكثر عفوية لكأن الناس اكتشفوا فجأة السعادة المغرية الداعية إلى قلب المعتاد والمحرم . وهكذا ، راحت الحواجز تتفتت الواحد تلو الآخر بعنف وتسارع كان يستحيل على المرء أن يتخيلها مجرد التخيل قبل سنوات خلت ، بحيث أن ذلك كان يباغت في أغلب الأحيان حتى أكثر المتمردين تحمسا .

وهكذا ، فلما غادرنا القرية باتجاه الغرب ، كانت الشمس قد صعدت إلى النصف الأول من قوس السماء الصافية . كان رابح وعلي يسير بمحادات الحمار وكنت أتبع خطاه وأنا لا أدري إلى أين أذهب وإن كنت سعيدا بمغادرة القرية (كم من الوقت؟) . المنبت الذي لم يرحم طفولتي التعيسة.

جمد الصيف الحركات والصرخات ولم يبقى سوى صمت الشمس الثقيل الأبيض يدفع الساعات أمامه . لقد اكتشفت أثناء السفر أن رابح وعلي الذي يرافقني كان يبعد بمسافات لا يمكن تخيلها عن ذلك الذي كنت أعرفه في القرية . تلك القرية الممقوتة بقضبانها اللامرئية وإن كانت صلبة تتراقص فجأة في وجه كل من تسول له نفسه تناول ملعقته بيده اليسرى وضغوطاتها التافهة الساذجة ونفاقها الذي يشكل حجر الزاوية في تلك الحياة الجماعية . إني أتساءل كيف يصبر الناس ويمثلون المهزلة طوال حياتهم دون أن ينفجروا كما يفعل في غالب الأحيان حند أوزروق في وضح النهار ، فيتقيؤون من الغيظ مدسوس مصارينهم ، ويعبرون عن سخطهم ونفاد صبرهم . ويا للمهزلة ، فحتى أولئك الذين ذهبوا ليموتوا بعيدا تحت سماوات أكثر رحمة قبالة البحر أو وسط الشساعة الهائلة لصحاري العرق أو سهول الحمادة ، ها هم يقررون إرجاع رفاتهم وذكرياتهم إلى هذه القرية المستبدة التي حرمتهم طوال حياتهم من أن يتنفسوا بلا ضغط كما حرمتهم حتى من مد سيقانهم تحت أشعة الشمس المدغدغة التي طالما عصرت الأجساد حتى تنبجس منها أكثر المشاعر سرية . إن أحسن ما آمل لأخي أن تبقى عظامه مجهولة لا يمكن العثور عليها ،فتندثر في أرض أكثر ضيافة من أرض عالمنا الذي نحتت أخلاقه وتزمته مثل صخور جباله.

لا يمكن لأخي سوى أن يكون مرتاحا حيث يرقد . وعلى كل حال ، من المستحيل أن يشعر بضيق يتجاوز ذلك الضيق ألذي يمكن أن يعاينه في أرضنا . ما زلت أتذكره جيدا . كان راعيا مهملا غير سعيد البتة في حياته . ما كان يسعده فعلا هو صداقة كلبنا بوبي ودفء " البيري الباسكي " الذي كان يعتمر به في فخر . كان أبي بالأخص يشدد عليه في الحياة . وهكذا ، كان علم أخي ينحصر في الغنم والماعز والناي القصبي وفخاخ صيد الأرانب . كان يحلم دوما بالسفر مشيا على الأقدام حتى أقرب مدينة إلى القرية ، غير أنه لم يتمكن أبدا من تحقيق هذا المشروع قبل أن يحمل السلاح الذي قلب رأسا على عقب القواعد الصارمة التي كانت تسيطر على حياته .

مازلت إلى اليوم ، حين أتذكر أخي ، أرى صخرة كبيرة مغطاة بنباتات متسلقة جافة مبيضة . تلك الصخرة توجد في بوهارون ، وهو حقل نملكه غير بعيد عن القرية . بالإضافة إلى البيت ، كان ذلك هو المكان الذي كنت أرى فيه أخي في أغلب الأحيان . كنت أجده كل مرة جالسا على الصخرة الكبيرة يخمن أو يعزف بنايه . كان أسعد يوم في حياة أخي بلا شك ، يوم أهداه خالي (الذي استشهد هو الآخر خلال الحرب) نايا معدنيا جميلا كان قد ثقبه وزينه هو بنفسه بمدية .

كان أخي أبعد ما يكون عن الراعي المثالي ، ولو أستطاع أبي لكان قد دحرج حتى الجحيم تلك الصخرة الآثمة الشاهدة على كل التسليات والغوايات . أي فلاح كان أخي سيكون لو قدر له أن يعيش إلى بعد سن الرعي ؟ الأكيد أن أبي كان يطرح على نفسه المرات والمرات مثل هذا السؤال المخيب الآمال !

من حسن الحظ أن أخي فهم كل شيء ذات يوم . كان قد عاد إلى البيت وقد تبدلت ملامحه تماما وسكنته قوة وقناعات دوخت أبي . وغادر البيت ليلا ولم نره إلا بعد عامين في الليل أيضا وقد تبدلت سيرته أكثر من ذي قبل . كان قد كبر فصار أكثر هيبة وصرامة وطمأنينة رغم وجهه المكفهر . لم يكن زيه العسكري ورشاشه (الذي أخبرنا بأنه من صنع صيني) ليثقل كاهله . ولكم كان يتفنن في حمل ذلك

الرشاش وفي ارتداء ذاك الزى العسكري ، الأكيد أنه كان يفتخر أمام أبي بذلك .
كانت ذكرى الراعي المهمل الملتصق كشحمة الأرض على صخرته الكبيرة المغطاة بالنباتات الجافة الملتوية ذكرى بعيدة فعلا! كان يرافقه شاب وسيم مثل عساكر الاحتلال ويتكلم لغتنا بلثغة مضحكة

لا أدري كيف تمكنت أمي من الحصول على تلك الأشياء اللذيذة التي تؤكل والتي لم نكن نشك حتى مجرد الشك في وجودها في بيتنا : الكسكس الأبيض الممزوج بالبيض وبقطع الشحم والقديد فضلا عن الحلوات المحشية بالعسل .
كان أخي قد تخلص تماما من سوداويته التي كانت ترافقه في الماضي فراح يأكل وهو يحكي النكت المضحكة ويتحفنا بالكلمات الذكية . كان يسرد علينا مشاهد الأمكنة والقرى التي عبرها (يا له من تحرر بالنسبة إليه هو الذي كان حلمه لا يتجاوز التمني ببلوغ أقرب مدينة دون أن يتمكن من ذلك أبدا؟) ويستعمل كلمات جديدة لم أكن أفهم معناها. كنت وأنا استمع إليه قد استخلصت أنه قد صار رجلا مهما وأنه كان يعيش في مملكة سرية (ضرب من الأمكنة السماوية التي لا ترى نهارا ولكنها بمجر نزول الليل تتنور بأضواء عجيبة خيالية) يسكنها رجال تشدهم أخوة كبيرة ونبل عظيم ورأفة واسعة.

ما أطيب أن يتخيل المرء أخاه يتجول في ذلك العالم الخيالي البطولي بعيدا عن الحياة اليومية المستبدة التي نحياها تحت وطأة أخمص بنادق عساكر الاحتلال !
كنت أعلم أن عالمه كان عالما صارما ولكنه عادل يكسب فيه المرء شارات المروءة التي لا تمحى . فكل من دخله مهما كانت مرتبته الاجتماعية السابقة ــ أصبح في نظر القرويين صاحب مجد لا يضاهى إذ كلما تطرق الحديث إلى أولئك ! وكل ذلك لا يتم إلا خفية وهمسا ــ انهالت عبارات المناسبات الفريدة ، عبارات تقشعر لها الأبدان وتلزم المتحدثين بالتحلي بصمت ينم عن احترام كبير : الأرض ، الشرف ، الدم ، الأخوة . كان أخي أشد جمالا وهيبة ، ولم يكن طول قامته

ووجهه الطويل ليذكراني أبدا بصورة المراهق النحيل التي كنت قد ألفتها في السنوات الخالية . لم يكن ذلك إلا ليزيده رشاقة !

وها نحن اليوم نذهب للبحث عن رفاته التي ترهن الأحلام ، بينما كان قد غادر بقفزة أسطورية غير متوقعة ذلك البؤس الذي يدبغ الطفولة وأحلامها المجنونة . ولكن ، هل كان يعلم أن تلك القفزة ستقذف به إلى الطرف الآخر من الجرأة والشجاعة؟ كان يقال أن أولئك الفلاحين الشباب الذين كانوا يلجؤون إلى الجبل كانوا يموتون بشجاعة مثالية . شباب ممجدون أمام شباب يشفق عليهم ؟ ها هم الآن يرقدون تحت الصخور الصلدة ، ها هم الآن في الطرف الآخر من هبوب الرياح وحفيف النسمات ، هم الذين لم يسعفهم الحظ حتى ليتعلموا ما يمكن أن تمنحه الحياة من ضحك وفرح للعقل والجسد وقت سنوات الشباب الحماسية.

ألفة لموت متتالي وقدري كالقمح والدفلى المرة والعنب اللذيذ . ها هم أولئك الذين حصدهم الموت بالنار والقسوة الممزقة لأشلاء يتحولون إلى أغاني تصدح بها شفاه النساء ويصبحون أحاديث ممتعة تدور في اجتماعات الرجال .

كان الجبل يسمى تامقوت . إنه مرادف الموت الأكيد ولكنه أيضا صنو الثلج الناصع والحرية في الهواء الطلق . كانت النساء جميلات مغريات رغم هالات الازرقاق التي تحيط بجفونهن ورغم الأسمال الرثة التي خلفتها آثار الحرب على أجسامهن الممشوقة . بطونهن مخبأ لا يرحم ينجب الموت والحياة اللذين يتضامنان في المطلق . انتصار البشرة الملساء المتمسكة وإن كانت هشة ! لكانت النساء قد روضن الموت بجمالهن الهادئ وصرخاتهن الوحشية كصرخات الذئاب المفترسة التي كانت تنطلق من حناجرهن المجروحة كانت ترهب المحتل فيتراجع مرتعدا . كن يرافقننا في البحث عن الرفات وهن يغنين لطرد الحيرة والكآبة والخوف المجمد للأوصال . كن يغنين لتصفية الدموع من مرارتها .

يا جبل هبط راسك

باش اتشوف عنينا
وين لعبوا اصغارنا
يا جبل ارحم ولادنا
اللي رقدوا تحت احجارك
يا جبل هبط راسك

لكن تامقوت كان لا يبالي وكالمحش الذي يحصد العشب غير عابئ بموته، كان تامقوت يدفئ بحمايته ويرعب بموته . وجه متقلب فجأة ، يصعب فهم ملامحه مثل وجه القطة المتوحش وهي تلتهم صغارها . كلما فكرت في أولئك الموتى ، تراءت لي بيدر الدراس التي تصليها نيران الصيف . كنت أرى أيضا الأصفر ، لون القيظ وغبار القمح ، لون الأحلام السماوية حيث السحب البيض تلتهم الحشرات البطيئة ، ذات يوم ، وقد بدأت أكتشف لأول مرة إغراء الحقول في عز الصيف ، تراهنت مع أخي على ماهية الموت.

حدث ذلك في يوم قائظ كاليوم ، كان البحر يتراءى متلألئا من بعيد بزرقته التي تقطع نهاية البصر بخطها الأفقي المتصل بالسماء . كنت قد زرت أخي فوق صخرته الكبيرة التي لفحت الشمس أطرافها المتآكلة كانت الماعز تنام تحت ظل زيتونة وكانت الأغنام قد تراصت "" راكسة "" شاخرة وقد أتعبها الحر ككلاب تاهت في البحث عن طريدة مجهولة . وفجأة جذب أسماعنا حفيف عشب يابس ، فالتفتنا في نفس الوقت . كانت هناك عظاية صغيرة بلون عشب الربيع تزحف ببطء صوب البحر . لحظتها قلت لأخي:

ــ من خلق العظاية الصغيرة؟
ــ العظاية الكبيرة .
ــ ومن خلق العظاية المتموجة؟
ــ تمساح السباخ.

ــ ومن خلق تمساح السباخ؟

ــ رب أمك .

ــ أتموت العظاية؟

فقال أخي ، بالتأكيد أراهنك بقفة عنب مقابل عجمتي زيتون ! وتناول عصاه المقطوعة من المران فقطع العظاية قطعتين فاصلا رأسها عن ذنبها . غير أنه بدل أن تموت الزاحفة الصغيرة تحت نظراتنا ، راحت قطعتاها ترتعدان للحظات ثم مضت كل واحدة على حدا.

كان النهار قائظا كنهار اليوم . وكان الموت يدس مناخيره بعبثية بين سنابل الشباب والفتوة . الموت الذي يلد المجد والأغاني المنكرة في حناجر النساء الجميلات . كان الموت أيامها هو صورة الشيوخ وقد نالت منهم يد العجز المطبق فتقرحت سيقانهم المعروقة ، صورة المرضى الذين يعانون سكرات داء عضال ينفر منهم في النهاية حتى أعز الناس إليهم . لكن الموت اختطف ذات يوم الوجه الصبوح الفتي ، وجه العنفوان في عز الشباب الخالد الذي قصمته اليد الغادرة وهو يطير في العالي، فراحت النساء تلطخن وجوههن بالأزرق حتى يكون لدموعهن لون الجمال اللازوردي ويحتسين عسل الصباب المذوب حتى يطبعن تموجات حناجرهن الحارة النواحة:

يا جبل هبط راسك

باش اتشوف عنينا

وين لعبوا اصغارنا

يا جبل ارحم ولادنا

اللي رقدوا تحت احجارك

يا جبل هبط راسك

كان رابح وعلي أبعد ما يكون عن جمال الأبطال . كان أنفه حبة بطاطا حلوة وكانت هيأته أقرب ما تكون من صورة دب في عنقه رسن . لعل حظه أبعد ما يكون عن أن يتحول يوما إلى موضوع أغنية أنثوية تمدح جمال الفحولة والهيبة ، بل لعله أبعد بكثير عن أن يتعرض يوما لضربة الموت القاصمة زمن الحرب، تلك التي دفنت الشباب والفتوة في كفن المجد المطرز . الأصياف التي لا تطاق والزبل المسود المنشور خريفا على الحقول والذباب والحمير والأشياء غير المتوقعة المرتبطة بالشمس والأمطار: هذه عوالم مجحفة قدر على رابح وعلي بلا ريب أن يخضع لها إلى الأبد . لذلك ، مال إلى المزاح والهزل كي ينتقم من ظلم القدر الذي أتحف البعض بالجمال ووصم البعض الآخر بالقبح كما خلق البعض أبطالا وأغفل حيوات البعض الآخر . أفي قلبه بعض من الحماس أو بعض الجراح المخفية التي يدفنها في مخبأ الذاكرة المكتومة؟ من الصعب معرفة ذلك ، فتشبثه بالحياة مهما كان الثمن أقوى من أن يسمح له بفتح ثغرة في صرح حذره . فالقرويون لا يرحمون حين يتمكنون من اكتشاف شق في السور المسيج لأحدهم . يومها ليقل هذا الأخير : على الدنيا السلام . لذلك ، فرابح وعلي يحترس دائما، فتراه متجندا أبدا بالسخرية والهزل لدفع كل محاولة تستهدف وجوده التعيس . فهو لا يغضب مهما يحدث مخافة أن يفقد للحظة جأشه فيصاب الصرح الذي بناه طوال حياته بالانهيار . فهو لا يغضب لأي سبب كما لا يغضب على أحد ولو كان القدر ذاته الذي ما فتئ يطعنه طعنات مخزية . فكلما تأزمت الأمور ، استخرج رابح وعلي ، لتبرير هدوئه غير المناسب وقتها ، عبارة بسملة يصعب على الكثير من القرويين فهم عناصرها المحدثة جدا "" نحي رجلك على أفران الدنيا وخلي لرض تدور كما تحب!"

التصقت الشمس في نقطة ما من جبهتي وراحت تراقص أشعتها النارية فتحولت ذاكرتي إلى مرجل تتدافع فيه حمم بركان تجرف جرادا يصارع النار وأكداسا من الأوراق المنسية التي تآكلت تحت أقدام المشاة. جميع الأشياء المحيطة بنا صارت تنتعش بكثافة كما لو كنا نشعر بوجودها وثقلها لأول مرة . فالشمس راحت تضرب بمطرقة كبيرة والهواء أصبح يرتعد كمساحة والروابي صارت تعرقل خطواتنا بأيدي لا مرئية ولكن كم هي قوية .

أيتها القرى ، لكم هي نافرة ساحاتك المتحولة إلى مجامر من الأقدام والأكتاف المتعبة ! لكم هي شحيحة الدعوة تلك النظرات الناعسة التي تتبع تحركاتنا وتوقفاتنا حتى ولو لطلب مجرد جرعة ماء ! لكأن الصيف الذي لا يرحم قد ألهب بناره كرم الناس فبدت القرى التي نعرج عليها مجرد صحراء مخفية تحت سقوف حمراء . قديما ، كنت أطمح إلى أن أرى أكبر عدد ممكن من القرى ، أذ كنت أعتقد أن بكل قرية أشياء جديدة تستحق الاكتشاف . وحين كان احد أترابي يعود من مدينة ما ، كنت أشعر بالغيرة تأكل حناياي . غير أنني عرفت الآن أن هذه المشاعر كانت بلا أساس. لا شيء يشبه قرية كالقرية الموالية . إيغيل مهدي ، تيغزوين ، تاينسرت ، أزغار ، لم يكن في تلك القرى إلا تلك المساحة الصغيرة ونفس الأشجار العارية ونفس الحرارة التي لا تطاق ونفس النعاس الذي ينشره الصيف . القرى المطلة على البحر هي وحدها التي تدعو المسافرين إلى المكوث قليلا لاستنشاق نسيم البحر برئات مفتوحة على أقاصيها.

أول مفاجأة سارة صادفتنا هي وصولنا إلى أنزرو ، القرية الكبيرة التي طالما حلم أخي بزيارتها في أحلامه اللامعقولة هو الراعي الطائش . الأكيد أن الحياة هنا مرفوقة بملذات متنوعة أيما تنوع . لم يكن المعمرون قد تركوا المدينة جميعهم ، إذ ما زال بعضهم ، أغلبهم طاعنون في السن ، يتنزهون بكلابهم المشدودة الكمامات في حدائق ضيقة ذات مقاعد خضراء نظيفة وفوارات تتبول بلا نهاية باتجاه السماء . كان أولئك يدهشونك بمظاهرهم غير المؤذية وملامحهم الخائفة أو

الداعية للشفقة. جميع الأجانب الذين كنا نراهم في قريتنا كانوا عساكر قاسين . أذ ، هناك أجانب مدنيون مثلنا؟ لكم يعلمك السفر أشياء لا تصدق!

في أنزرو ، توقفنا لأول مرة في مدخل المدينة ، توجد كوكبة من أشجار الكاليتوس ، حيث يربط القرويون حميرهم ، ثم يستقيم أمامك شارع واسع جميل قاطعا المدينة من طرف إلى طرف . الحركة تدير الرأس والمرور كثيف . دكاكين مختلفة الأصناف تعرض بضاعتها على المارة . لكم وددت أن يكون لي أقارب في هذه المدينة حتى يمكنني البقاء فيها أياما آكل وأشرب تلك الأشياء التي لا توجد في القرى.

تجولنا تائهين وسط زحمة " الغاشي" . كانت المأكولات المعروضة فوق الرفوف تضرب أنوفنا ومعداتنا بروائحها المشهية هل سيذيقنا رفيقنا ودليلنا لذة حلوى مجهولة ؟ لكم هي مخيبة حركات الكبار الشحيحة! صحيح أن رابح وعلي أطربني ببعض النكت المضحكة ولكن البطن لا يشبع بالهزل. وهكذا ، رحنا نتجول تائهين في الشوارع الواسعة . كانت كلها مستقيمة ومزدحمة بالسيارات المتوقفة التي كان رابح وعلي يعرف أسماء وطراز الكثير منها .

لم يزدني الأطفال الذين إلتقيتهم إلا مرارة وحسرة ، فوجوههم تطفح بالصحة وملابس تعبق بالنظافة .جميعهم يبدون أنهم أبعد ما يكونون عن حياة التعاسة الموصومة بالعار والقمل وكدمات نتف الحشيش وجمعه . الذين يتحدثون يفعلون ذلك برقة كبيرة بينما يحسن آخرون حتى لغة المعمرين فيتحدثونها بسهولة .

لم أكن أعلم أن الله غير عادل إلى هذا الحد . بينما مازال الكبار يكررون على مسامعنا في القرية أننا شرفاء المنبت وأننا ننتمي إلى عائلات محترمة وأنه يجب علينا أن نحذر دائما مخافة أن ندنس سمعتنا وكرامتنا! آه! لكم أتوق إلى أن أصبح واحدا من أطفال تلك "" الفوارة "" التي ما فتئت تتبول باتجاه الشمس لكم أتوق إلى

الحياة مثلهم في نظافة ورخاء ودفء ولم لا حتى اكتساب بعض لعبهم الحلمية وآلاتهم التصويرية ومدياعاتهم الصغيرة؟ الأكيد أنني سأضحي من أجل ذلك لا بامتياز مريب لابن عائلة فحسب وإنما بجميع الروابط التي تشدني إلى قريتي . وعلاوة على ذلك ، فقد سبقني غيري إلى هذا . بل إنهم كثيرون أولئك الذين سبقوني إلى ذلك . كل ما هناك ، إن أسماءهم لا تذكر في الأحاديث إما خجلا أو إخفاء لتجرئتهم مخافة أن تعم العدوى شباب القرية . الآن فهمت موقف أولئك الشباب المنحدرين من عائلات جد تقية محترمة و ... فقيرة ، الذين يعبرون البحر بلا رجعة مودعين ماضيهم بلا أسف . رغم ذلك ، فأقاربهم الذين يصطنعون اللامبالاة ، يسارعون إلى استقصاء أخبارهم كلما عاد البعض ، حيث يسألونهم عن الأبناء والآباء الضالين لبعض سنوات ثم تطمس يد القدر كل أمل فيضع الأقارب حجرا على قلوبهم ويواجهون المكتوب بالصمت .وهكذا يودع المهاجرون في خانة " التائهين" ويطوي الصمت سيرهم.

لا أدري ما إذا كان تجوالنا سينعم علينا بأماكن أجمل من هذه . غير أنني أحدس أن ذلك غير محتمل أبدا . فحتى البحر يبدو هنا بالأخص مروضا ومضيافا من خلال تلك الحواجز والأسوار المضبوطة . أما المدينة ذاتها فجد نظيفة . إنها ممنوعة على الحمير المروثة والناهقة التي يتوقف خبوها الخنوع عند المدخل في كوكبة الكاليتوس ، حيث يشد نظراتها (الحمير) التائهة مرور السيارات ويجذب شمها نسيم عرض البحر القريب .
لقد التقينا أناسا من قريتنا ومن القرى المجاورة . الجميع ، كان مشغولا بهذا العالم الذي يتسرب من بين الأصابع ويدوخ، إذ بمجرد أن يحييك أحدهم يختفي في دوامة القضايا المتشابكة التي سرعان ما تبتلعه . لقد اكتشف الناس اليوم أنه يمكن للمرء أن يصبح غنيا ومحترما وأنه يمكن امتلاك متاع لا يقدر بثمن دون عناء أو خسارة مال . لقد انتشر الخبر : البلد فيها حكومة ملك للجميع وهذه الحكومة تملك ثروات ستوزعها بلا تميز . وهكذا ، هجر الكثير من القرويين ديارهم وباعوا أزواج ثيرانهم وقطعانهم الصغيرة من الماعز أو الغنم حتى يخففوا

عبأهم ولجؤوا إلى مقرات الإدارة متزاحمين منتظرين الهبة ، قاضين أحيانا لياليهم هناك حتى لا تفوتهم أول دقيقة لفتح المكاتب .
لقد استبدلوا قاعدة الشرف وتقاليد الأجداد بقاعدة أخرى وتتمثل في كمشة من الأوراق والنسخ والعقود والشهادات المختلفة والبطاقات المتنوعة الألوان . لقد بدأت حفاظات النقود تضيق بالكواغط ، فصار الفلاحون يضطرون في كل لحظة إلى الاستعانة بالناس الذين يحسنون القراءة والكتابة حتى يميزون بين هذه الوثيقة وتلك .

لم نمكث للأسف في أنزرو إلا ردحا من الزمن كفيلا براحة الحمار وباستنشاق هواء البحر المنعش وبتمكين رابح وعلي من أن يدس أنفه في التحركات البيروقراطية كي يرى ما إذا كانت هناك وسيلة لابتلاع بعض الفتات من فرصة سانحة حتى وإن كانت قليلة الاحتمال ، لكن ، من يدري في هذا الزمن الذي خلط جميع الأوراق؟

الشيء المؤسف حقا هو أننا لم نذق أيا من المأكولات اللذيذة المعروضة في المدينة الصغيرة . ومضينا في سيرنا عبر أرياف جرداء ودروب تكاد لا تصلح للمشي وقرى معلقة بهشاشة فوق قمم الجبال حتى إذا داهمنا الليل ، توقفنا وأشعلنا بين الحجارة نارا بالقش والأغصان اليابسة وطبخنا ما نسد به رمقنا.

ــ دا رابح ، لم تنفع كل هذه الأوراق التي يطاردها الناس بشغف؟
ــ المستقبل يا ، صغيري ، ورقة كبيرة ، يساوي فيه كل دفتر وكل ملف مائة مرة وزنه من ذهب . ما أتعس أولئك الذين لا يسجلون في الدفتر السليم!
ــ هل لك الحق أنت أيضا في الشهادات والبطاقات؟

ــ أجل ، يا صديقي ، لكن للبطاقات ألوانا مختلفة ذات علاقة وثيقة بألوان الأحداث . فأنا حاربت بطريقة خاصة نوعا ما . لقد قضيت أياما صعبة فعلا في مواجهة جيش الاحتلال.

ــ ومع ، ذلك ، فقد قضيت كل سنوات الحرب في القرية.

ــ بالطبع ، لكن المظاهر ليست كل شيء . أنت تذكر بلا شك ، تلك الفترة التي حاصر فيها عساكر الاحتلال جميع سكان القرية ، تلك الفترة العصيبة التي لم يجد الناس حتى ما يسدون به رمقهم. فحتى ما يمكن أن ندفع به الجوع كالبلوط والخروب والعشب أصبحت منعدمة . كنا أربعة نخرج كل ليلة بحميرنا محاولين أن نجمع من الحقول المجاورة ما نسد به الرمق . لوقت ما ، كنا نعتبر أنفسنا أسعد حظا من باقي القرويين الذين لم نكن نبخل عليهم أبدا بكمشة من الفواكه أو ربطة من الأعشاب الصالحة للأكل إذ لا يمكننا ، كمسلمين متوادين أن نشبع بطوننا بأعشاب متنوعة حتى تخضر شفاهنا ولثاتنا كالتفاح النيئ ، بينما جيراننا يقضقضون أسنانهم على هبات الريح الربيعية! غير أن دورية ليلية باغتتنا ذات ليلة مشؤومة في الحقول . أوامر بالتوقف . طقطقات رشاشة . صرخات . لحسن الحظ ، لم يصب أحدنا بطلقات نارية . ثم ألقي علينا القبض وانهالت علينا الضربات واللكزات بأخماس البنادق واقتدنا مع حميرنا إلى معسكر العدو . وهناك ، أمرنا بأن نعترف أن خروجنا ليلا كان يهدف إلى الاتصال بالمجاهدين قصد إمدادهم بالأغذية . وعانينا من الضربات واللكزات والكدمات ثم رمانا العساكر في سرداب تحت الأرض لمدة ثلاث أيام . بعد ذلك ، أطلق سراحنا بعد أن تأكد لهم أن خروجنا ليلا لم تكن له علاقة بالمجاهدين غير أن تجربة السجن كانت حاسمة إلى درجة أن لا أحدا منا تجرأ فيما بعد على وضع أنفه في الخارج . لقد اكتفينا بمضاعفة تشديد ربط أحزمتنا على بطوننا الخاوية . غير أن الجوع أملى علينا ضرورة الخروج فعاودنا التسلل خارج القرية . وذات مرة ، بينما نحن نستعين بضوء القمر لنبش فضلات مزبلة العساكر عسانا أن نعثر على علبة سردين كما حصل في الماضي حيث كنا نجد بعض تلك العلب الفاسدة المحتوى ولكن كم كان سردينها لذيذا ، بينما نحن ننبش المزبلة وقعت أصابعي على مظروف رسالة

سرعان ما دعاني حدسي إلى وضعها فورا في جيبي . هل كنت آمل أن أجد نقودا في ذلك المظروف ؟ لا أستطيع أن أتذكر ذلك . عندما بلغت البيت ، سلمت الرسالة لابني شعبان يقرأها وهكذا ، عرفت أن الرسالة كانت موجهة إلى جان بيار لولو ، الملازم الأول حاكم المعسكر وقد أرسلها إليه أبوه . لقد فاجأتني الرسالة كثيرا ، لأنني لم أكن أعرف أن هناك أجانب يفكرون تجاهنا ذلك التفكير إذ كان الأب يذكر أبنه أنه ينحدر من عائلة جد محترمة وأنه يجب عليه ، مهما كانت الظروف ، ألا ينكل بهذا الشعب الذي يرزح تحت نير الاستعمار بلا حق . كما ذكر في الرسالة أيضا العمل في معمل ما والخلافات القائمة والصراعات التي لم أفهم جيدا معناها ومرماها . إن أخذ الملازم الأول لولو بهذه النصائح ذا أهمية كبيرة بما أن الرسالة انتهت إلى المزبلة . أما أنا فلم أفكر قط في أن فضولي سينقدني يوما ، فقد فاجأتني ورفاقي مرة أخرى دورية وقادنا عساكرها إلى المعسكر . هناك فصلوا بيننا فتعرض كل واحد منا لتعذيب أولي كان أقسى عشرات المرات من ذلك الذي سلط علينا يوم القبض علينا أول مرة . لقد جاء الملازم لولو بنفسه ليتفقد طرق تعذيبنا وبمجرد ما رأيته يدخل القبو الذي أوثقني فيه معذبي ، استنجدت به صارخا :

ــ حضرة الملازم الأول لولو ، أنتم الذين تنحدرون من عائلة جد شريفة ، لا يمكن لكم بأن تتصرفوا هكذا أبدا.

في البداية ، لم يظهر عليه أنه فهم ما أقصد . يبدو أنه لم يكن حتى متأكدا أنني أنا المتحدث فعلا . ما دخل عائلته في هذا المكان اللا إنساني ؟ غير أنه سرعان ما تفطن إلى الأمر فاقترب مني سائلا:

ــ أذا، أنت تعرف أبي ؟

ــ وكيف لا أعرف أباكم؟ أليس هو لويس لولو الساكن في " مونس أون بوال " في الشمال ؟ هناك قضيت شبابي في المهجر قبل الحرب ؟ لقد عملنا لفترة ما في نفس المعمل.

لأول وهلة ، بقي الضابط صاغرا ثم صرخ في وجهي :

ــ ولماذا لم تحدثني عن هذا أبدا!؟

ــ لم أكن يا حضرة الضابط لأسمح لنفسي بإقلاق راحتكم بحكايات حياتي التعيسة . القانون هو القانون . لم أكن أطمع أبدا في التمتع بامتياز شخصي !

عندها ، التفت الضابط إلى معذبي القساة آمرا :

ــ أطلقوا سراحه فورا!

ومن يومها لم يقلقني أحد على خروجي ليلا رغم أن هذا الخروج لم يهدف إلى جمع البلوط والخروب والأعشاب المغذية فحسب وإنما صار فعلا وسيلة اتصال بالمجاهدين"".

كان الليل ، أيامها ، يتأخر ساعات وساعات ، متواريا في طيات الجبال قبل أن ينزل بثقله على البسيطة. كان التعب المتراكم طوال النهار يكاد ، عند المساء ، يخذل قوائمي ويثقل جفوني ولكن رابح وعلي كان دوما يصر على أنه يجب أن نقترب أولا من البحر إذ أن الحرارة كما كان يقول لي ألطف ليلا هناك . كان صوته يصلني متسللا ببطء كبير عبر فراسخ من الهواء المتقطن في الجو.

أشرقت الشمس باكرا فراحت أشعتها تتراقص فوق البحر الهادئ . روعة الأفجار التي تبعث الحياة في الجسد المرهق وتحيي إرادة اكتشاف آفاق أخرى والاستعداد لأسفار أبعد من سابقتها . أية ذاكرة كفيلة بأن تختزن جنبا إلى جنب كل هذه الألوان المتشابكة وهذه الروائح العذراء واللصوقة وكل هذه الأصوات الخافتة المعلقة التي تنسج الهواء كخيوط العنكبوت التي تخترقها الأشعة الضوئية؟ الأرض صلبة تحت موقع القدم لكن الروابي البادية من بعيد تتمايل وقد أنارتها الشمس وكأن بها دوارا لا ينتهي . لقد أصبحت توقفاتنا منتظمة: الأولى حوالي الحادية عشرة والثانية حوالي الرابعة زوالا والثالثة والأخيرة كلما داهمنا الليل .

أصبحت شهيتي لا تشبع مرات عديدة في اليوم ، تتملكني الرغبة في التوسل إلى رابح وعلي كي نتوقف حتى أتناول حفنة ممتلئة من التين الجاف المخزن في القمطر أو " أخطف " فاكهة مغرية من البساتين الممتدة على الطريق . غير أنني كنت أعلم أنه يتوجب علينا المضي قدما لأن مهمتنا نبيلة ولا تحتمل الخلل . ما قيمة مغص معدتي إذا قيست بتلك العظام التي نبحث عنها ، العظام الشهيدة التي يسبح صاحبها السعيد في الحدائق السامية؟ إنه أكبر امتياز ينفرد به في الآخرة أعظم من جميع تلك الأغاني الفانية التي تصدح بها حناجر النساء لسنوات فقط ومن كل تلك الشواهد الغالية التي تزين بها قبورهم ومن تلك الدفاتر التي سجلت فيها أسماؤهم .

جميع هؤلاء الشهداء ، بلا استثناء ينالون ذلك الثواب العظيم ، حين يقوم الله باجازة المؤمنين في الآخرة .

ــ دا رابح ، كيف هي تلك الجنة التي يلتقي فيها الشهداء ؟

ــ الجنة، يا بني ، هي شوارع فسيحة مزدانة بالجمال الرائع والنظافة المغرية ، أرصفتها مليئة بالبغرير اللذيذ المغموس في عسل النحل الحر وبساتينها مكتظة بأشجار التفاح التي تكاد أغصانها تنكسر تحت ثقل تلك الفواكه المسيلة للعاب البشر التي لا تكفي يداك الاثنتان لاحتضان التفاحة الواحدة منها . في الجنة ، يا بني ، تنفجر حبات الدلاع والبطيخ العسيلة تحت ضغط عصيرها المنعش الذي ما فتئ يسيل جداول وسواقي عند الأقدام ، أما حجلات الجنة ، يا بني ، فهي أكبر من طيور الديك الرومي التي تعرفها تكفي حركة منك ، بل ماذا أقول؟ يكفيك أن تفكر فيها وها هي مسلوقة أو مشوية وموضوعة أمامك في ألذ مرق تحلم باحتسائه . غير أن أروع ما في الجنة بلا شك هما ذانك النهران المتوازيان الأول يسيل زبدة لذيذة والثاني يجري عسلا ولا ينضبان مهما اشتدت حرارة الأصياف ومهما تضاعفت حركت الغرف من سيلانهما.

وضاعفت جنة دا رابح جوعي وعطشي .إنها جنة يحلم بها أولئك الذين ما فتئت أمعاؤهم تصرخ من شدة اصطفاق حواشيها. لكم أتمنى أن يكون مكاني محفوظا فيها من الآن .

ــ وهل كرم الله كبير بلا حدود حتى يكفي الذين سقطوا في ميدان الشرف؟

ــ أن كرم الله ورحمته ، يا بني ، لا تحدهما حدود ولا تثنيهما حواجز . أن قلب الخالق أوسع من كل القارات ولا يمكن الإحاطة بعرشه . أنه جد مهيب ذو لحية لا محدودة يتركها أحيانا تسبح في السموات كسحاب ناصع لا يشوبه خدش . لم يلد ولم يولد) عمره غير محدود ولا يخامره الحقد أبدا.

إن ما يخلده فوق عرش الكون هو صبره اللامحدود وقدرته على غفران أكبر السيئات . أنت تعلم أن كل واحد منا يرافقه في حياته ملكان يملك كل واحد منهما دفترا : ملاك في الكتف الأيمن يسجل كل الأعمال الصالحة وملاك في الكتف الأيسر يسجل كل الأعمال السيئة . كلاهما يخبر الله باستمرار بما يقوم به عبده الضعيف . غير أن ملاك الخير هو الذي يسارع دائما على تقديم تقريره قبل ملاك الشر . إن الله لا يحتاج إلى قلم وقرطاس لتسجيل تقاريرهما وإنما ذاكرته تسع الدنيا والآخرة وغالبا ما يستمع الله إلى الملكين وابتسامة تعلو شفتيه وربما تغاضى عمدا عن سماع أفعال البشر إذ يغفر الكثير من سيئاتهم .

ليس رابح وعلي ثرثارا كبيرا لكن يوم تحل عقدة لسانه تمضي الساعات والمسافات بسرعة جنونية وهكذا لم نتوقف هذه المرة إلى ساعة التوقف الأولى المزمع على الحادية عشر إذ كانت رجلاي تنتظران قطع مسافة غير محدودة

أحيانا كنا نصادف قوافل أخرى من الباحثين أمثالنا عن الرفات . بعض تلك القوافل كانت هامة وبعضها الآخر كان يتكون من ثلاثة رجال أو أربعة بدوابهم المرهقة . كان البعض يرافقنا لمسافات ما فنتحدث في غالب الأحيان عن تلك المحن التي مرت بنا وعن تلك الحرب الضروس التي لم ترحم لا الصغار ولا الكبار بل تعدت ذلك وقضت على الكثير من الحيوانات ، إذ غالبا ما كان بعض مرافقينا يقول بمرارة: " حتى الحمير والكلاب لم تنج من قسوة المحتلين" ، ثم تفرقنا الحرارة القيظية التي تمزق الهواء بضربات جازمة وتغلف ممشانا بسرابها المتراقص .

بيد أنه منذ حادينا البحر ، تراجعت الحرارة وكأنها ذوت وقد ابتلعها البطن الأزرق الشاسع. كان نسيم مهدهد يمسد على وجوهنا ، عابقا برائحة ما فتئت تغزو أنوفنا بمزيج من أريج نسغ الأشجار وتعفن الخشب وروائح الأسماك البحرية ومذاق سفر بلا رجعة.

النسيم يدعو إلى السير بلا توقف . وذلك ما كنت أريد أن أفعله حقا . أن أسير من أجل السير يرافقني صخب الموج القريب ويواجهني فجر بلا نهاية بياضه كزبد البحر الغاضب وقد انعدم في أفق آخر وقفة كل أمل للعثور على هيكل عظمي أو الرجوع إلى القرية ، إذ أن فكرة رفات أخي تدمي قفاي كحمل حزمة شوك على ظهري . كيف يكون الحال يوم نعثر على رفاته فنحملها معنا رفيقا صامتا لكن كم هو مقلق؟ لكم أحاول عبثا أن أنسى هذا وأروح أمني النفس ببلوغ مدينة ما سنتجول في شوارعها أو بلقاء قريب منسي منذ عهد بعيد . غير أن ذاكرتي المشؤومة سرعان ما تستحضر حالتنا التعيسة ونحن نمضي إلى مصيرنا كبحاثة عن جيفة مجهولة .

لم يصر الأحياء كل هذا الإصرار على نبش رفات أولئك الموتى المجيدين وعلى تغيير قبورهم؟ أيريدون أن يتأكدوا أنهم ماتوا فعلا وأنهم لم يعودوا أبدا للمطالبة بنصيبهم من الاحتفاء ومعارضة خطبنا وتظاهراتنا الوطنية وسعادتنا بالنجاة من لهيب حرب كان أعمى لا يرحم؟ أم يصرون ، ببساطة على أن تكون قبور أولئك الموتى أعمق من قبور غيرهم جميعا؟ من يفهم البشر ؟ يبكون دويهم زاعمين أنهم أعز شيء يفقدونه في هذا العالم ثم يسارعون إلى نبش رفاتهم حتى يدفنوها في أعمق القبور!.

كانت الصراصير ترافقنا بإنشادها المتواصل الذي يمزق الأجواء بمجرد بزوغ الفجر ويروح يتعالى مع اشتداد الحر. كان غناؤها أثقل من حجر شواهد القبور إذ لا يخفت قليلا إلا عندما نتوقف للمرة الثانية في النهار على الساعة الرابعة زوالا . لكن سرعان ما تخلفها (الصراصير) أصوات خافتة لحشرات أخرى تروح تدب في اطراد مع قدوم المساء الأغر . جراد ، عظايات ،

بوضويات ، تستقبل الليل بغنائها غير المتجانس وخشخشاتها المتفاوتة . أصوات تتضرع إلى الظلام ، إلى رب اللزوجة ، أصوات عشق جامح نافد الصبر ، أصوات توجس أو خوف، أصوات فرح متوحش بالانقضاض على جسد الضحية المصطادة.

الليل يحيا بكثافة تتجاوز تلك التي يمر بها النهار . بشرته تنتفض تحت جذبات وقوف زغبه المواجه لشفاه نسمات مكدرة وتفوح أمواجها المتراقصة من الروائح الطيبة أو الحامضة كروائح أنثى مغلوبة مأخوذة لم تعد قادرة على ضبط ما يصدر عنها.

في بادئ الأمر ، كانت الليالي التي قضيتها في العراء تخيفني . كنت أتقلب في فراشي الهزيل بلا توقف ، كابحا أنفاسي وقد داهمني الارتياع عند سماع أقل خشخشة عشب ، غير أنني ما أسرع ما أعتدت المبيت في العراء إذ تعلمت أن الليل لا يخفي أعداء في الواقع ، بل أن تلك الهبات الخافتة أو الأصوات المتفاوتة ما هي في الغالب إلا عبارة عن يقظة مقصودة فعلا ، ضرب من التذكير المنتظم لإخطاري بأن كل شيء على ما يرام وأن كل خطر داهم سيوقف في الوقت المناسب. وهكذا تعلمت أن أنام في كنف مخلوقات تقضي الليل في هدهدتي وقد أقضت مضاجعها حمى انتظار الشمس التي ستريحها فتنام هي الأخرى بدورها . ومع تضاعف ثقتي ، رحت أطلق العنان لأحلامي تهدهدها أغاني الحب وتوجسات الاحتراس وإن كان الإرهاق سرعان ما يطبق على جفوني المتعبة في نوم عميق.

كان ضجيج الفجر المشحون أجمل ما يمكن سماعه. مع لمعان وجه السماء المتراقص ورفرفة أجنحة العصافير المبكرة الساحرة لم يكن يخفى علي أي غناء ينطلق في الأجواء العذراء . زقزقة قبرة أو بلبل أو أحمر صدر ، لكن الصوت الذي يسلب عقلي هو صوت الشرقراق الذي يتصاعد ثم يخفت في غناء حزين يمزق القلوب ، لكأنه يعاني حسرات الموت ثم سرعان ما يتصاعد مرة أخرى

أيها الرفاق المطمئنون لقلوبنا عبر هذه الطرق المتربة، لكم هي سامية أغانيكم المحملة بالزرقة والرقة بحيث رفعت من معنوياتنا في السفر

المأتمي هذا! قصتي مع الطيور قصة جد طويلة، من الأعشاش المكتشفة مملوءة بيضا صغيرا إلى صيد صغارها ذات اللحم الهش الطري، إلى العصفور المغني وهو يرفرف بأجنحته الملائكية في السماء مغردا . كم من عصفور رقد في كفي المضمومة وقد راحت دقات قلبه تخترق بنبضاتها ريشه الناعم وتسري عبر شعيرات دمي ؟

طيور أخرى تبعتنا باستمرار . طيور جيفة ضخمة تتموقع عاليا في السماء وتروح تراقب ضحاياها المحتملة . ظلالها المكبرة تبرقع الأرض ببقع ضخمة. كانت تلك الطيور هي أكثر من يرافقنا بلا كلل . فهل فهمت أن مراميا المتقاطعة تخفي تشابها بديهيا؟

الأكل هو الموضوع المفضل الذي لا ينضب في أحاديث سكان هذا البلد وفي مسعاهم اليومي أنى اتجهوا . فمنذ أن استرجاعنا سيادة الوطن وصرنا نأكل حتى نشبع ، تملكت الكثير من الناس طبائع غريبة متوقعة تتسم في غالب الأحيان بالتهور المفرط . لقد انقطع الناس عن بعضهم البعض ولم يعودوا يتساعدون فيما بينهم ولو بقرض مجرد ملعقة لبعضهم . متخلين في ذات الوقت عن تواضعهم وتغليف أفعالهم وتصرفاتهم بأبسط صفات الحياء والحشمة. قديما ، كانت تقاليد الشرف وحسن الجوار تفرض أن يتقاسم الجيران كل مأكل نادر (لحم وفواكه) أو على الأقل يخفي حامل تلك الأشياء المطلوبة حين يشتريها حتى لا تثير حفيظة جيرانه أو أقاربه . الآن ، على خلاف ذلك ، ترسخ التبجح والتمظهر بين الناس ، فصاروا يتنافسون في عرض أكبر قدر من الفضلات أمام أبوابهم وفي نشر أغلى الثياب والأفرشة بنوافذهم حتى يثيرون غيرة من لم يسعفه جيبه لاقتناء مثلها أو أحسن منها . لقد أصبح الناس يملكون متاعا وأشياء لم تكن تراودهم قديما حتى

في الأحلام آلات براقة تستعمل في التمتع بالموسيقى أو في حفظ الأطعمة بالبرودة أو في إنارة البيوت أو تكييف هوائها وتخفيف هبات الريح داخلها ، ناهيك عن آلات عرض الصور الثابتة أو المتحركة وحفظ التوازن المستقر وغير المستقر.

يبدو أن القضية الكبرى التي تشغل الناس في حلهم وترحالهم تبقى الأكل بلا منازع . بادئ ذي بدء ، فاجأت تنوعاته الناس وأفقدتهم توازنهم بطرح مشاكل لا حل لها . إذ يمكن أن يأكل المرء ثلاث أطباق مرة واحدة؟ ولكن بأي طبق يبدأ؟ وأن حدث أن شبع المرء بإنهائه الطبق الأول فتجشأ ملء فمه ماذا يجب عليه أن يفعل بالطبقين الباقين؟ لقد ولدت هذه التخمة المفاجئة المبالغ فيها خصومات لا تحصى داخل البيوت وفرقت أحيانا حتى أفراد العائلة الواحدة .

وكالعادة ، بدأت بمناوشات الحموات العجائز اللواتي فقدن أسنانهن ، فرحن يقلن : ربي يعطي اللحم للي ما عندو أسنان . أذ لم يتحملن أن يشاهدن كناتهن يأكلن ملء بطونهن . لقد بدا لهن ذلك عيبا كبيرا وتصرفا في غير محله . هن حرمن أنفسهن خلال شبابهن حتى من التين الجاف والكسكسي الأسود المفتول من دقيق الشعير الذي يجرح البلعوم لكي يشاهدن في نهاية أعمارهن نساء شابات متمردات على العادات يأكلن بنهم كحيوانات المربط؟ لكأن الدنيا انقلبت في أيامهن الأخيرة ، فلم تعد تولي ظهرها لمخلوقات الله(ربي يعطي اللحم للي ما عندو أسنان) . كلا ، لقد صار الدهر لئيما غير عادل البتة. هل نام الأولياء أنفسهم هم الذين عودوهم برجاحة قراراتهم وبحسن الميزان والكيل وغلبتهم هم الآخرين هذه التخمة الشامتة في مصيرهن هن العجائز ضحايا العهود الجديدة الرائعة؟

إن شريف أومزيان ، ذلك الرجل الذي يشبه " أشعب " الأزمنة المعاصرة هو الذي أخبرنا وهو في طريقه مثلنا للبحث عن عظام أخيه بأن زردة كبيرة ستقام غدا في المكان المسمى " عين البقرة " ، لقد علق منظمو تلك الزردة مكبر صوت بمئذنة مسجد مدينة أنزرو وما فتئوا يعلنون عنها منذ الصبيحة . لقد أوضح لنا هو بنفسه أنه قرر أن يعرج على تلك الزردة رغم أنه كان متجها إلى الجنوب ثم أضاف (أن التبرك بالأولياء ضروري في مثل هذه الحالات قبل إتمام السفر!) وراح يتحفنا بمدح ذلك المكان المقدس الذي ستقام به الزردة المذكورة

ويحاول إقناعنا بكرامات الولي المدفون هناك وبالمساعي النبيلة للقائم الحالي! الولي هو الآخر) الذي يشرف بجدية على ذلك المقام الحنيف . لم نقاطعه لا أنا ولا رابح وعلي لعلمنا بأنه أصم كقربة عنب وأنه يتحرج أيما حرج كلما رأى أحدا يحرك شفتيه أمامه ويبدل جهده ليفهم ما يقول محدثه ، حتى أن الناس الذين يعرفونه جيدا يصغون إليه حين يتكلم ولا ينبسون ببنت شفة .

ــ في أيامنا هذه صار أكل اللحم شيئا عاديا أتعلمون أن حتى طريقة طبخه تنوعت هي الأخرى؟ لم يعد يقتصر الأمر على سلقه في مرق دسم مطعم بالحمص وإنما اكتشف الطابخون العديد من التوابل الطيبة التي يبهر مذاقها المتنوع متناوليها المحظوظين.

لو قلت أسماء بعض تلك التوابل لتلويتم من الضحك حتى تخرج أرواحكم . إنها جيش عرمرم من الأعشاب المغموسة في الزيوت والخضر وحتى السكريات السابحة في مراقي غريبة. بالطبع ، لم تقم القيامة ، إذ مازال سكان بعض النواحي يقدمون لك كسكسيا دسما يمكنك أن تحفربين طياته سواقي رائعة تسيل زيوتا زيتونية . غدا، سيتمتع مريدو الزردة بلحم سبع عجول فحول ، اللهم لا تحرمنا من لذتها الطيبة الدسمة التي تسيل اللعاب بحلاوتها الذائبة في الفم كالزبد المفتت تحت وطأة الأسنان . أيامها ، كنت أرى ذلك من بعيد فقط ، كان المتمتعون بذلك ثلاثة رجال أشداء تزيدهم لحامهم الكثة هيبة كهيبة الأولياء . كانوا يسوقون حمارا ضخما محملا بثقل غريب مغطى بعناية بأغطية رثة . كل واحد منهم كان يرتدي برنوسا كبيرا عتيقا رغم حر الموسم، الذي كان ربيعا أو صيفا على ما أذكر إن لم تخن الذاكرة . في قلمونة كل برنوس ، كان يرقد مجلد القرآن تآكلت حوشيه ودواة وحزمة من الأقلام المنحوتة من القصب الجاف . كان لون ملابس الرجال الثلاثة يوحي بأنهم قضوا جل حياتهم أمام مدخنة عكرة الدخان أو تحت أمطار كثيفة من الوذخ .

كان الرجال الثلاثة يثرثرون باستمرار ويقطعون غالبا كلامهم بلغو غريب لا يمكنني فهم اللغة المنسوب إليها . كان القرويون يحيطون بهم وكل آذانهم صاغية كتلاميذ يستمعون بعناية لأستاذ مجيد . وكثيرا ، ما كان الرجال

الثلاثة يخرجون دواتهم وأقلامهم ويروحون يحبرون تمائم غريبة لا يمكن قراءتها على ورق أصفر مؤطر . وسرعان ما فهمت أنهم يعلمون أسرار حياتنا ويعرفون حقيقة كل فعل نأتيه وسبب كل تحرك نصدره بحيث أنهم قادرون على إشفاء جميع الأمراض خفيها وظاهرها.

لم تبدر أية إشارة للأكل ومع ذلك ، فبمجرد بلوغ الشمس كبد السماء ، جرى أحدهم إلى جدي طري فأوثق قوائمه وذبحه ثم سلخه على عجل وأخذ قطعه المسيلة للعاب إلى البيت وسرعان ما سلق لحمه اللذيذ في مرق مطعم بالعدس . على ما أذكر ، كان المبادر هو فرحات آكلي ، أفقر أهل القرية وأتقاهم . لم يترك لأهل بيته إلا الأمعاء والكرشة. حتى " زلوف " رأس الجدي وقوائمه أحضرت مطهوة إلى الجامع.

كان الغرباء الثلاثة الذين أثاروا سخطي وكراهيتي الحالكة العميقة، يكادون يفقدون صبرهم وهم ينتظرون بشغف وضع جفنة الكسكسي المزدان بقطع اللحم الكبيرة أمام مجلسهم وقد كادت أنيابهم تخترق شفاههم بشراسة لا تعادل إلا شراسة الوحوش آكلة اللحوم حتى إذا حضر الطعام الفخم راحوا يعتذرون بنفاق واضح وأصابعهم تمتد بلا هوادة إلى قطع اللحم الشهية .

كنا ننظر إليهم بصمت وهم يأكلون . لم يكن يسمع في الجو إلا قضقضة أسنانهم وهي تهصر اللحم بنهم كبير . بعد بضع دقائق ، خيم علينا شعور لا يطاق بالتقزز ، غير أن الشيوخ سرعان ما طردونا بعيدا ، وهكذا ، تفرقنا نحن الأطفال وقد تملكنا الخجل والغضب وإن كبتنا حركات الاحتجاج التي كنا نصدرها أحيانا حين نحرم من التمتع بمشهد نعتقد أنه من حقنا الوقوف عليه . لكنني سرعان ما رأيت ثغرة صغيرة في سور الجامع . فتملصت من أترابي ورحت أتجسس على الرجال الغرباء : كانوا يأكلون في صمت وقلما ينظر أحدهم إلى الآخر. وبين الفينة والفينة كانت تند عنهم تنهدات أو همهمات مخترقة لقم الكسكسي أو اللحم المالئ لأفواههم المنتفخة الأوداج .خيوط العرق تسيل من جباهم على عيونهم وخدودهم، فيمسحونها من حين لآخر بأكفهم المدسمة التي

ينشفونها بدورها في أطراف برانيسهم الوسخة دون أن يفوتهم تجرع الماء البارد الموضوع أمامهم في قلة كبيرة كلما أحسوا بازدحام الأكل في حناجرهم .

استمرت هده المعركة الحامية مع الأكل نصف ساعة طويلة حمد " المحاربون" الثلاثة الله العلي الكريم على نعمه الوافرة بصوت جهور ووضعوا في نفس الوقت ملاعقهم ومسحوا أيدهم في لحاهم الكثة دون أن يفوتهم شد شعرها لحظات كثيرة داعين بالخير والبركات لذلك الرجل الذي أطعمهم هم عابري السبيل ، حاملي آيات الله المقدسة .

لقد علقت صورة هذه المأدبة المرعبة بمخيلتي أياما عديدة . لقد اتضحت لي صورة ووجوه هؤلاء الوحوش الذين لم اسمع بهم في السابق إلا في حكايات الأسواق ومجالس الشيوخ. مازلت إلى اليوم ، كلما أشاهد مأدبة مماثلة ، أتذكر أولئك الأغوال المدثرين ببرانس وسخة منفرة وقد رحت أتخيلهم يلتهمون لحم حمارهم بمجرد مغادرة قريتنا . وعلاوة على ذلك ، فهؤلاء الأغوال لم ينقرضوا تماما ، صحيح أنهم عطروا لحاهم وغسلوا برانيسهم التي صارت أجمل وأكثر بياضا ، غير أنني متيقن أنني سأشاهد بعضا منهم غدا ، وقد تحلقوا حول بعض القصع التي ستقدم إلى مريدي " عين البقرة " .

لا يحقق الولي الصالح سيدي معاشو بن بوزيان ــ طيب الله ثراه ــ إلا أمنية واحدة في السنة . فأتباعه الفقراء من الفلاحين الطيبين لا يطلبون إلا مردودا جيدا من الشعير أو الفول المزروع في قطعهم الأرضية الجدباء أما الزوجات العاقرات فإنهن يتضرعن إليه كي ينعم عليهن بطفل ذكر ... والواقع أن معجزات الولي الصالح تتحقق بشكل عجيب لا يدع مجالا للشك ، إذ لا يمر أسبوع واحد حتى يأتي أحد الأتباع مغتبطا مبتهجا ويهدي تيسا أو كبشا للولي الذي ينصر طالبيه في كل امتحان.

بعضهم يأتي من قرى بعيدة جدا ، قد يتطلب بلوغها أياما من السير . وقد يوجد من بين مريدي الولي الصالح من لا يتكلم اللغة المحلية وإنما يتكلم لغة أخرى أكثر مجدا لقربها من اللغة المقدسة .

إن المريدين اللذين يأتون من بعيد لا يمكثون يوما واحدا فحسب ، وإنما يحملون معهم أوانيهم وزادهم ويعسكرون قريبا من القبة المباركة ليومين أو ثلاثة أيام . وأثناء تلك الأيام المباركة تتلى الأناشيد الدينية والأراجيز المقدسة التي تضفي على المكان المقدس هالة من " الكرامات" وتخرجه من سباته المعتاد . وتعج القرية بحركة جديدة دؤوبة حتى يخيل للمرء أن سكانها اكتشفوا من جديد سلالتهم الشريفة المنحدرة من " المرابطين" المجددين ههنا ، وقد كاد بعضهم ينسى تقوى أولئك الأجداد العظماء . وهكذا ، حتى أولئك الذين لا يزورون ، عادة ، المكان المبارك أبدا ، يقبلون على مشارفه لإلقاء نظرات فضولية وينتهون في الآخر بالانضمام للمبتهلين . من جميع البيوت ، تخرج دلاء الماء الطاهر للوضوء والمصاحف العتيقة التي أكلت العثة حواشيها لعدم فتحها منذ شهور طويلة تصير الأيدي تتخطفها والأصابع المرتعدة تتصفح أوراقها المصفرة .

يطلق على حرم الولي " عين البقرة " ، لأن عينا تسيل قريبا منه ، أما قصة البقرة ، فجميع المردين ، اللذين قضى بعضهم أياما طويلة في المشي كي يستنشق الهواء النقي المنعش المنبعث من حرم الولي الصالح ، يعرفونها عن ظهر قلب .

قديما ، تجرأ صعاليك لا يقهرون من سرقة بقرة من قطيع الرجل الصالح المقدس . كانت المجاعة منتشرة أيامها ، فذبحوا الحيوان وسلخوه ووزعوا قطع لحمه بالمساواة على سكان القرية قبل أن يتفطن محيط الولي إلى تلك السرقة . وهكذا ، تلوثت أيدي جميع سكان القرية بهذا الفعل المنكر . كان الجوع قد تغلب على التقوى . غير أنه ما إن داهم الليل البيوت بظلامه واستعد القرويون لالتهام ذلك العشاء اللذيذ الذي لم يبلغ أفواههم مثله منذ شهور ، حتى ارتاعت ربات البيوت وقد لاحظن في فزع أن لاشيء قد بقي من اللحم الذي وضعنه في القدور المخصصة للمناسبات الكبرى . لقد مضى الفلاحون المساكين

ليلهم مرتاعين وقد راحوا يرتعدون منتظرين العقاب والقصاص الذي قد يفوق رعبه وقسوته ذلك الزلزال الذي سلط قديما على أجدادهم الذين نسوا موعد الصلاة . وما إن طلع النهار ، حتى رأى السكان بعيون مندهشة مرتاعة البقرة المذبوحة والمسلوخة والمقطعة والمطهوة وهي تجول في ساحة القرية وتأكل من حين لآخر أعشاب الحسك والمرار .

منذ العهود الغابرة وسمعة العائلة " المرابطة " تتصل بالبقرات ذات الكرامات الكبيرة . فقد جد الولي الصالح الذي كان وليا ذا كرامات هو الآخر والذي بنى حرمه على مبعدة نصف نهار من السير عن " عين البقرة " ، رأى ذات يوم عابر سبيل حسن الطلعة يقود أسدا مرعبا ويتقدم إلى دار الرجل التقي وقد أحاطت به هيبة كبيرة زادها حضور الحيوان المتوحش قوة وروعة وسرعان ما سأل صاحب الدار الصالح :

ــ أمن مسكن ومأكل لضيف ربي ؟

ــ مرحبا بكل مؤمن يأتي به الطريق إلى بيتنا . منزلي منزلك .

ــ أين يمكنني يا حضرة الولي أن أربط هذا الأسد في انتظار سفري ؟

ــ خذه إلى الحظيرة ، يا بني ، فهناك بقرة يسيل لعابها قبله سيترافق الحيوانان ويتآنسان.

ــ ماذا أسمع ؟ أقوده إلى الحظيرة يا صاحب المكارم ، لكنني أخاف على البقرة ؟ افعل ما أقوله لك يا بني فقوة الله لا حدود لها . هو الوحيد القادر على التصرف في مصير المخلوقات .

وقضى الرجلان جل الليل ساهرين يتحدثان عن هموم الدنيا وشؤونها ، حيث أبرز الرجل الغريب المهيب قوة علمه بفخر مستعرضا ظواهر الأشياء وخفاياها. لقد وجد الولي نفسه في موقع التلميذ فراح يصغي إلى الأستاذ الفصيح الكلام بكل احترام وخشوع ، دون مقاطعته. لم يتجرأ على مخالفته الرأي في أية لحظة وحين انفصل الخيط الأبيض عن الخيط الأسود وبان الفجر ، قام الرجلان فصليا جنبا إلى جنب ، بعدها توجه عابر السبيل إلى الحظيرة لحل وثاق

وحشه فلم يجد إلا بطانية ما تزال ساخنة . كانت البقرة قد التهمت الأسد خلال الليل .

الخشوع ، كان أول خصال هذا الولي الصالح الذي سبق له أن أوحى بالتقوى الكبرى لحفيده سيدي معاشو بن بوزيان . إذ منذ نعومة أظافر هذا الأخير بينما هو ما يزال طالبا بين أترابه في زاوية سيدي برقوق الشهيرة ، كانت تميزه عن أنداده ، خصال التواضع في ملبسه والحياء في كلامه و سلوكه . ذات يوم وهب مؤمن ثري الزاوية ثورا ضخما عمره خمس سنوات، فأحجم جميع الطلبة عن مد أيديهم إلى بطن الحيوان كي يفرغوه من روثه وينظفوه، غير أن معاشو بن بوزيان خرج من صف أترابه االمحجمين وشمر عن دراعيه وتوجه إلى القصعة الكبيرة التي ملئت بالأمعاء والأحشاء اللزقة . وراح المعلم ينظر إليه في صمت وهو منهمك في عمله وحين وقف الشاب ويداه ملوثتان بالروث النتن، التفت الرجل إلى طلبته الذين كان الكثيرون منهم يحني رأسه خجلا وقال لهم دون غضب .

ــ لقد انتصر عليكم جميعا . هو الذي سيصير صاحب البراهين والمكارم . أذ ، بدأ معاشو يتميز عن رفاقه لا بمعجزات وسلوكات صارخة وإنما باحترام كبير وطاعة وخشوع وتواضع مهيب إذ كان الشاب ينفرد بسرعة فهمه وحفظه للآيات الكريمة مثلما كان يتفرد بإرادته القوية وروحه المضحية في جميع الأعمال الجماعية .

ويوم ترك الشاب معاشو بن بوزيان الزاوية ، كان قد تزود بعلم مجيد وتقوى كبيرة سبقاه إلى مسقط رأسه . فلما عاد إلى قريته التي لم تكن تسمى يومها عين البقرة ، أحاط به على الفور الاحترام الكبير للفلاحين الذين عينوه على الفور شيخا للديار رغم صغر سنه كان ذلك في عهد الاعتداءات الاسبانية على سواحل البلد . لم يدع سيدي معاشو بن بوزيان إلى الجهاد المقدس وإنما كان يكتفي كل صباح بعد صلات الفجر بالخروج من القرية حاملا عصاه المعقوفة ويتجه إلى البحر حيث يضرب ساعات وساعات خرشة من شجر الدفلى ، حتى ينهار على الأرض وقد أرفض جسمه عرقا وملأت وجهه دموع حرى . وبدل من أن يسيل من الدفلى نسغ مر ، ينهمر من أغصانها وأوراقها دم أحمر ساخن

وينحدر حتى يختلط بماء البحر لم تمض إلا أسابيع قلائل حتى مر على القرى بحارين يعلنون لأهل الجبال أن الاسبان جلوا عن آخر مدينة ساحلية.

ها هي اليوم ثمانية ثيران مذبوحة ومسلوخة في الساحة المظللة بأشجار المران والكاليتوس المتفرقة ، ما تزال تشهد على مجد الولي الذي لا يندثر . كان الرجال منهمكين في تقطيع لحمها وقد صبغ الدم أذرعهم بحمرته القانية وكانت الزنابير والنحل تئز ناتفة من جذوع الحيوانات المسلوخة قطع من لحم في مثل كبر حجمها .

كانت الحرارة تصلي الأرض بأشعة نارية فما أسرع ما بلغت الشمس اليوم قلب السماء وتوسدته غير مبالية بالأذى الذي تلحقه بالناس الذين راحوا يلهثون تحت ضرباتها النارية كثيران يرهقها المضمد (المحراث) .

أزيز الزنابير المحومة وحده هو الذي كان يطبع إيقاع المجمر المعلق في سرة الصيف . كان من السهل على تلك الحشرات أن تخادع يقظة الرجال ، إذ كانت تنزل في أسراب صغيرة هاجمة على الجبال اللحمية كمقصات حادة لا تثلم . لم يكن الرجال قادرين حتى على طردها من أذرعهم بنشة كف حيث كانت تحط كوكبات لتمص الدم المتجمد وفتات اللحم الصغيرة المتطايرة جراء ضربات الساطور والفأس الموجهة لعظام الحيوانات القاسية . ربما كان الإنهاك في التقطيع يشغل الرجال أكثر من أي شيء إذ لم تكن فؤوسهم وسواطيرهم تتوانى في النزول والصعود ولم تكن خناجرهم لتتوقف عن تمزيق اللحم النيئ . لقد فصل الرجال العظام الكبيرة عن القوائم والرقاب عن المفاصل ، فتحولت الثيران الضخمة التي لم يكن بالإمكان إسقاطها للذبح إلا بعد تظافر جهود جميع سكان القرية ، تحولت إلى عراريم متساوية يعجز المرء عن أن يميز فيها بين رأس هذا الحيوان أو ذاك .

إن كانت الزنابير تلتصق باللحم برفع بطيناتها وخفضها ، بطريقة منفرة ، فإن الأطفال يحومون حول المذابح آملين في الفوز بمثانة يفرغونها من بولها ويحولونها إلى كرة هشة. والواقع ، أن العديد من الأشياء تجدب الأطفال وفي مقدمتها هذا الجو غير المعتاد لحفل علق ههنا في عز القيظ المنعش المدوخ. فما أجمل وما أمتع هذا التجمع من الملابس البيضاء المنتشرة في الباحة وهذه القوى العاتية التي قضت على الثيران .

والآن وقد راحت الشمس تتراجع ببطء نحو المغيب ، ها هي نسائم لطيفة يصعب تصديقها تنزل على القرية . لقد أوقفت الأشكال والألوان ، التي صارت ألطف وأرق من قبل تهديدها بحدتها أو لمعانها . كان الرجال قد خبؤوا أكوام اللحم فلم يبق في الساحة إلا رائحة الدم و الأحشاء النتنة المفرغة من ثرثها وقد راحت الزنابير والذباب تحوم حولها بتثاقل واضح . كان القرويون الذين انشغلوا عن هذا الحفل الدموي بقيلولتهم أو انهماكهم في الحقول قد شرعوا يتوافدون على الساحة وشيئا فشيئا بدأت الجدران المتهدمة التي تستعمل كمنابر الآن وكذا صحن المسجد تتغطى بالرجال والأطفال المتراصين ، أما النساء فقد كن يتحايلن للاكتفاء بنظرات ملحاحة من خلف الأسوار أو " الزريبات" . الأبصار مشدودة . الجميع ينتظر المريدين " المرابطين " .

ولم يتأخروا عن الظهور . الأوائل أقبلوا من قرى الروابي العالية ، من جهة وادي الظل . لقد بدو للعيان قبل ساعة من وصولهم القرية. الرجال يسيرون في المقدمة وقد حملوا لواء موحد اللون ــ أصفر أو برتقالي ، إذ من الصعب تحديد اللون في ضوء العصر المحي ــ والنساء العجائز يتبعنهم ، كوكبة هلامية من القماش الملون بمختلف الألوان كانت أغانيهم تسمع من بعيد وقد راح الصدى يردد مواويلها في أرجاء الوادي حيث كانت نغماتها تعلو تارة وتنخفض تارة أخرى ــ حين يعترض سبيلها حاجز طبيعي مخفيا في نفس الوقت قافلة المريدين الذين سرعان ما يظهرون من جديد لنظراتنا المشدودة . لكن ما أسرع ما تناهت إلينا أغاني أخرى منبعثة من جهات أخرى . كان المريدون يقبلون من جميع الجهات وإن لم نكن نرى ، مع ذلك ، إلا كوكبتين منهم فالذين يصعدون

من ناحية النهر ما زالوا غير مرئيين بحيث أن اقترابهم من القرية لم تكن تعبر عنه سوى الأصوات التي ما فتئت تتصاعد أكثر فأكثر .

لقد وصلت قافلة القادمين من وادي الظل يتقدمها حامل اللواء ــ الذي تبين الآن أن لونه برتقالي ــ الذي كان يعرج في مشيته وقد راح يتمايل تحت ثقل السنجاق ويغني مع الآخرين والعرق يسيل سواقي لجينية على جبينيه مضمخا خديه وشفتيه المرتعدتين من فرط الإرهاق والعصبية .

بمجرد ما دخل المريدون من المدخل الأعلى للقرية ، أسرع موح نقلي ، أحد أعضاء العائلة المرابطة إلى لقاءهم وسرعان ما خطف من حامل اللواء سنجاقه وأخذ مكانه على رأس القافلة وقد تعالى صوته بالدعاء والغناء مع المريدين القادمين ، محركا رأسه بمبالغة كبيرة إلى الأمام ثم الخلف وقافزا في مشيته على هذه القدم ثم على الأخرى كما لو كان يسير فوق الجمر . لقد بدا بلباسه المهرج وتقواه المفتعلة بالنظر إلى صغر سنه في صورة هزلية واضحة رغم خشوع اللحظة ، كبح بعض الحاضرين بصعوبة ضحكهم الذي كاد يفجر حناجرهم وهم يتفرجون على لثامه الطويل المتطير الأطراف وعلى حركاته المجنونة .

ولما مرت كوكبة الرجال ، تبعتها كوكبة النساء وهن يمشين بخطوات مترددة لكأنهن قطيع غنم كان راكسا مدة طويلة في الظل ثم أخرج فجأة إلى وضح النهار ، فأعماه الضوء الكثيف وتقاذفت فراقيشه المتقطن من كثرة الركوس فوق الأرض الصلبة المحجرة .

وصل آخر المريدين مع غروب الشمس ، فتجمع الكل برياته كعساكر جيش عرمرم ، في الساحة المسواة بالإسمنت والممتدة أمام حرم سيدي معاشو بن بوزيان . وقتها أخذ شيخ القرية يوزع بلا جحود الأدعية المقفاة كالشعر والمحفوظة منذ زمن طويل لمثل هذه المناسبات الكبرى . ثم تفرق الناس لدقائق قبل إحضار أطباق الكسكسي إنها اللحظة الباهرة في الحفل إذ أن مذهب الأكل هو أهم ما في المناسبة وعليه ستبنى فيما بعد الكثير من الأحاديث . إن المقدمين (خادمي الحفل) الذين ينتظرون لحظة إنشاد أراجيزهم ومدائحهم

يعولون على الطعام المقدم إذ أن كمية هذا الأخير وجودته هما اللتان تحددان نبرات أصواتهم في الإنشاد والرقص تعبيرا عن التقوى المهيبة . إنهم لا يحتاجون للخفة للوثوب والرقص وإنما بخلاف ذلك يتوجب عليهم أن يكونوا مثقلين تحت وطأة الهضم العسير والنعاس الزاحف اللذين ينقلان الناس إلى حالة ثانية تذوب فيها كل مظاهر التأدب والحشمة والحياء ثم تتبخر مع الهمهمات المتفاوتة التي تنطلق من الصدور الهائجة بالنار .

تسبق القرابين والهدايا دورة " الجدبة " (الرقص تعبيرا عن التقوى) فحتى أفقر الأتباع يعبرون في هذه المناسبة عن كرمهم اللامحدود . لذلك ، يفرش الشيخ أمامه سجادة كبيرة ويضع على جانبيه قفتين أو ثلاثة ، حتى تبدو كومة النقود والهدايا دائما ضعيفة فوق السجادة . مستوى الدعوات وحجمها يقاس على قدر جهد كل متبرع وهكذا ، يتوافد الأغنياء السابقون الذين لم يتضرروا خلال الحرب والأعيان الذين أثروا على حساب الاستقلال كي يؤمنوا على ممتلكاتهم بالدعوات التقية الصادرة عن " المرابطين " .

أول المتبرعين تقدم إلى دائرة الأتقياء ، رمي فوق السجادة ورقة من فئة خمسة آلاف . وإذ بادر الشيوخ بضم أيديهم إلى صدورهم للشروع في الدعاء له ، نهاهم بحزم قائلا:

ــ ليست هذه إلا البداية ، ما زال الوقت أمامكم للدعاء .

ورمى فوق السجادة ورقة أخرى وقال ادعوا بالخير لتجارتي .

ــ اللهم كثر دكاكينه حتى تصير كالفطر في فصل الخريف ، اللهم اجعل صناديقها تمتلئ بالمال كما تمتلئ خلايا النحل بالعسل .

ثم رمى ورقة ثالثة وقال : أدعوا لأراضي .

ــ اللهم وسع دوما حدود أراضيه وانعم عليها بالشجر المثمر والزرع اليانع والضرع الحلوب واجعل بيوته عمارات شاهقة .

ثم رمى ورقة رابعة فوق السجادة وقال : ادعوا لسياراتي

ــ الهم ، أبعد عن سياراته كل ما يعرقلها صدا وعطبا وحوادث.

وأخيرا قال خاتما طلباته بورقة خامسة: ادعوا لأولادي .

ــ اللهم اجعل أولاده أسيادا يتمتعون في طمأنينة بالخيرات الراهنة والآتية التي يمن العلي الرزاق عليه بها ويكلل بمتعتها جهوده التقية .

وتوافد متبرعون آخرون طالبين الدعاء لإبعاد عين الحساد والنحس عن شركات النقل التي يملكها هذا أو الأولاد الذين أنجبهم ذاك أو البقرات الهزيلات التي يرعاها هذا أو الثيران الضخمة التي يقودها ذاك.

وبعد سقوط آخر ورقة نقدية فوق السجادة ، تحلقت مجموعات أخرى وشرعت تبتهل ابتهالات حارة بأصوات بدأت منخفضة متفاوتة ثم سرعان ما استقامت فتوحدت وراحت تتصاعد ممزقة الأجواء ومتحدية الظلام المدلهم .

في ساحة صحن الحرم الواسعة ، كانت حلقات " الجدبة " ترعد كزوبعة تنبعث رعودها من صدور الأتباع . كانت التلاوة المقدسة تتبع من حين لآخر بأنين عميق متناغم أو بشخير مفاجئ غير مضبوط . وها هي الرؤوس والأجساد بكاملها تطلق العنان لتمايلها المجنون غير مبالية بأحد الرجال الجالسين وقد راح يحاول الوقوف لكن سرعان ما خذلته رجلاه المرتعدتان فعاد إلى مقعده بينما التلاوة تزداد تصاعدا وتسارعا إلى أن طغى صراخ أحد " الجادبين " الشبيه بصراخ حيوان مجروح فجأة فشوش على بقية النغم وسرعان ما قفز الرجل بغير انضباط وسط الحشد الراقص وقد بدت عيناه نصف مغمضتين من بياضها اللامع بغرابة تحت أضواء المصابيح البترولية ، انهيار شامل وإن كان قد مال فجأة بجسده على جهة واحدة وصرخ بصوت تيس مهاجم ناطح وقد لجلج الألم والارتعاد نبراته .

ــ آه ، يا عنفوان شبابي ، أي ريح درتك في الجبال .

كان وجهه يتلوى ويتجعد برغبات متفاوتة وقسماته تقاوم بلا رحمة شيطانا لا مرئيا . وقام رجال آخرون فامتلأ الفراغ المتروك بين المنشدين فجأة بالحركات والتنهدات والتأوهات ، فرحت أتأمل الأشكال التي أخذت تتذاوب تحت ضوء المصابيح البترولية حتى صارت تشبه تلك الظلال الشيطانية المعذبة التي يخلفها لهب نار الخشب على جدران بيتنا في الليالي الشتوية . كانت حشرات صغيرة رصاصية تحوم وتحط بلا هوادة على جفوني .

يا للغرابة ، الصمت يوقظني . فما دامت الصرخات والرقصات مستمرة ، كنت مشبعا بحلم صاخب أسطوري وها هو ذلك الحلم ينفرط كشيء غير متوازن فقد مسنده فبقى لثواني معلقا في الهواء ثم سرعان ما سقط بثقل . ورحت أنظر حوالي . ما زال الظلام مدلهما في السماء الصافية قليلا ، بدا القمر منتصفا لجينيا . وحين تفرقت دوائر المنشدين والمقرئين والراقصين أدهشني المشهد في قلب الليل المخيم ، ما فتئ " الأتقياء " الشيوخ يأكلون بنهم الكسكسي واللحم الطيب . كان غراف كبير من المرق يدور على قصعات الخشب المملوءة كسكسي وكان الشيوخ يأكلون بصمت وقد تحولوا إلى حيوانات طائعة مبحوحة ، لكأني بهم يختزنون الطعام لكامل أيام الأسبوع . ربما اكتسبوا مع تقدم السن فضائل الحيوانات المجترة التي تأكل أيام الجوع ما اختزنته من أطعمة أيام الشبع والتخمة .

التفت فرأيت رابح وعلي منهمكا غير بعيد عن الشيوخ الأغوال ذوي البرانس الرائعة . كان هو الآخر يشارك في جنون الملاعق مع مريدين آخرين أقل تميزا إذ لا يجوز لهم أن ينضموا إلى الكوكبة المجيدة للأعيان الأتقياء . كانت قصعتهم موضوعة على الأرض بلا سجادة تحتها كما هو الحال بالنسبة لأول من ذكرت . اقتربت من رفيقي وقد أثقل النعاس جفوني فلما رآني دعاني بإشارة من يده وهو يقول ــ كنت أبحث عنك ، أين ذهبت تعال تأكل كي تقوى ركبتاك على المشي ، سنسافر على الفور .

لم يكن الفجر قد بان . ووقعت نظراتي على الكسكسي البارد وقد خططته سواقي المرق الأحمر مربعات وقسمته إلى كتل صلبة . هذا المشهد غشى على قلبي وحرك معدتي للتقيؤ . وسرعان ما اتجهت إلى شجرة قريبة فأسندت ظهري بجذعها محاولا النوم لبضع دقائق غير أن رابح وعلي لم يتأخر في إيقاظي .

ولما ركزت الشمس نيرانها على الروابي ، كنا قد انطلقنا باتجاه قيظ آخر و" جدبات" زردة أخرى . الأكيد أن عظام أخي تنتظرنا ككنز دفين يرقد

بين هياكل عظمية أخرى لأبطال ما فتئت الأراجيز والتأبينات تنهال عليهم كما يهاجم الدود الجيفة التي تجذبه روائحها .

الـــقـــســـم الـــثـــانـــي

كان أخي في مطلع شبابه فتى شغوفا بالحياة رغم قساوة المعيشة وقتها ، لقد بدأ يحيى بالنسبة إلي منذ أمد بعيد جدا ، ذات يوم ثلجي ، كنت أبلغ أربع سنوات من العمر بالتأكيد ، غير أن الأشياء تغيرت خلال عشر سنوات إلى درجة أنني اليوم أكاد لا أصدق أن ما حدث وقتها حصل فعلا . فاليوم ، لم يعد جنان الكرموس (التين) الذي كان يغطي القرية موجودا. لقد صار الناس يأكلون حتى الشبع وأصبحت طائرات صغيرة كالعصافير الملمومة كالكويرات ، تقطع السماء عاليا جدا وهي تخلف وراءها خطوطا متوازية من الدخان الأبيض .

كان اليوم ثلجيا إذن وكانت العصافير تسقط من السماء وتستقر على الأرض مرفوعة السيقان وقد تجمدت كحجارة مزغبة . كنا نملك قطيعا صغيرا يتكون من خمس معزات ، جدتهم الكبيرة عنزة سوداء هرمة عوراء تخبو بصعوبة ، غير أننا كنا نحتفظ بها بعناية كبيرة تقديرا للماعز التي ولدتها لنا وحبا في حليبها الذي ما يزال غزيرا.

كان ذلك اليوم بالنسبة إلي يوما مشهودا ، كوني فزت رغم البرودة الشديدة ، بإذن مرافقة أخي إلى المرعى (الأيام السابقة أذكر أنني قضيتها تحت وطأة سأم قاتل ، أكركر قدمي الحافيتين في السواقي التي تسيل عبر أزقة القرية). نحن شعب يبدأ حياته النشيطة مبكرا جدا: راع في الرابعة أو الخامسة من العمر ، مزارع في الثالثة عشر ، رب عائلة في السابعة عشر أو الثامنة عشر . في سن الخامسة والثلاثين يتوقف المرء عن ترك رأسه عاريا وعن ارتداء السراويل الأوروبية ويلبس ثياب البلد الفضفاضة ويعتمر بالشاش الأبيض . ندخل

في معسكر الرجال الذين لم يعودوا ينتظرون شيئا من الحياة . كان ذاك النهار يتميز عن باقي النهارات الأخرى التي لم يكن بإمكانها أن تذكرني بمثله فيما بعد كان الثلج صلبا في بعض الأماكن كقطع الجير لكن السماء كانت زرقاء صافية ، تسبح فيها شمس شبيهة بقطع ذهبية ساطعة . في هذا اليوم الرائع الذي كان يطبع جميع الأشياء بأبعاد لا تصدق ، اكتشفت الغابات والروابي والمراعي كما رأيت موت العصافير الصغيرة التي لا تحتمل طاقتها البرد القارس .

كانت الدنيا مرآة جليدية تنعكس عليها أشعة الضوء . نادرة هي العصافير التي كانت تزقزق بأصوات خائفة على قمم أشجار البلوط والصفصاف التي كانت تبدو هي الأخرى أشباحا حالكة نحتت فوق الثلج الناصع . كانت عنزاتنا التي أجبرتها رداءة الطقس على لزوم البيت أياما طويلة، تقفز متزاحمة على الخرش التي تحيط بالطريق . كان أخي يعلق في ذراعه حلقة من فخاخ العصافير وما إن بلغ المرعى حتى اكتشف بدون عناء أرضية متربة عند أقدام الأشجار وتحت " الخرش " فنصب فخاخه وغطاها بالتراب المبلل . كانت الخرش تلتمع تحت بقع الثلجد حتى أن أشعة الشمس النازلة عليها تصنع بركا من الضوء وهي تخترق وريقاتها الكثيفة .

لأول مرة ، أقضي نهارا من العمل مع أخي ولا شك أن أخي تجاوز يومها نفسه خاصة ، إذ لكم صعب علي أن أصدق الراعي " الساهي " " الجايح " الذي انقلب إلى هذا الشاب النشيط المنهمك بين قطيعه وفخاخه وشفتاه تصفران بأنغام جميلة . لقد كانت قدماه الملفوفتان في خرق قماش رث والمحتذيتان بـــ " بوغروس " من جلد الثيران تقفزان بلياقة مفاجئة .

أول عصفور سقط في الفخ كان : أحمر الصدر " نحيف مريش ، أخذه أخي من ساقيه كأن الأمر يتعلق بصيد كبير وجاء يريني إياه بنوع من الاحتقار (لا أدري لماذا ولكن لم يسمح لي بتفتيش الفخاخ معه) غير أن أخي لم يكن يائسا .

قال لي انتظر ، عما قريب سيأتي دور الشحارير والبلابل . هذا هو الصيد بالفخاخ . يبدأ الأمر بالصيد الضعيف كما لو كان شكلا من أشكال التدريب ثم سرعان ما تنهمر القطع الكبيرة .

ولما لم تكن القطع الكبيرة وحتى الصغيرة مستعجلة السقوط شرع أخي في نتف ريش " أحمر الصدر " الذي كان قد برد فلم تعد ريشاته تنفصل عن لحمه إلا بعد أن تستأصل معها قطعا من بشرته .

وراح يقول لي : أتعرف؟ الصبر مفتاح الفرج ولكن للأسف يجب على المرء أن يتحرك إذا لم يرغب في الفشل ، لذلك ، فرغم أن الله مع الصابرين ، فإن هؤلاء الأخيرين قلما ينالون مطلبهم. ومثلما يقول المثل (الثروة لمن بكر فما أتعس المتأخر) . ما هو الشيء الذي يشغلك أكثر أنت حين تشرع في عمل ما؟

فأجبته بلا تفكير ، غير أنني سرعان ما وعيت بعد جوابي وخطورته فغمرني فخر كبير .

ــ أخاف أن أموت قبل إتمام ذلك العمل .

بقي أخي ثوان فاغر فاه ثم اقترب مني أكثر ومسح بيده على رأسي ــ حركة رقة وحنان غير مضبوطة لم أعتدها البتة ــ .

ثم قال أخيرا بصوت رقيق حنون:

ــ بالضبط ، ذلك هو الجواب الصحيح تصور أن مشروعا يشغلني كثيرا وكلما ينزل الليل ، أرتعد وأنا مقبل على النوم مخافة أن لا أتمكن من تحقيقه . أتعرف ؟ لا شيء أضعف من الإنسان . من القادر على ضمان حياته في الغد حين يرقد في فراشه؟ من السهل أن يقع لك أي حادث ــ قد يلتف إزار حول رأسك فيخنق أنفاسك ، قد يتهدم جزء من الجدار ليلا ، قد يتسرب ثعبان إلى فراشك وعلى الدنيا السلام! مشروعي ليس سهل التحقيق ، لكن ما يخيفني ليست قساوة تحقيقه وإنما التفكير في أن يتعرض سبيلي أحد هذه الحوادث فيضع حدا لحياتي هكذا بتفاهة وبغير عدل . ما زلت لا تعرف بلا شك أن لا شيء أقسى ولا أيأس بالنسبة للمرء كخدمة هذه الأرض المعجزة التافهة التي أبتلينا بها . فحين ترتطم سكة المحراث بصخرة أو حجر في الأعماق ، تشعر بقبضة يدك تتكسر وبقلبك يقفز إلى حلقك .

ما أقساها من لحظات عذاب تلك اللحظات التي تجبرني على شد مقبض المحراث فأبقى لساعات وساعات منهمكا في حرث تلك الأراضي الوعرة التي تلتصق بها أضلاف الثيران بما لا أدري من حدس أو معجزة . بعد فترة من ذلك العمل يداهمني الدوار والقيء فتتراقص أمام عيني نجوم متعددة الألوان وتروح برودة مقيتة تقشط صدري . لكن ، يجب أن أستمر مع ذلك حتى المساء وفي الغد وبعد الغد أيضا . هذا الأفق هو وحده الذي يجعلني أنظر باستحسان إلى تلك الحوادث الليلية التي تختصر نصيبا من الخبز فوق الأرض . إذا كانت الحياة مرادفا لمثل هذا الشقاء ألا يعقل أن ينهيها المرء؟ أحيانا يخلق الله الأشياء بالعدل

لكنني قررت ــ لا تقل هذا لأحد لأن ذلك سيلحق بي المتاعب ، إن ما قلته قبل لحظات هو الذي يدعوني إلى أن أكون أكتشف لك كل هذا ــ قلت لك أنني قررت أن أشتري إحدى تلك الآلات التي تسير تلقائيا وهي تحرث الأرض وخلفها . يكفي المرء أن يجلس على كرسيها العالي المريح وأن يتركها تفعل . لقد رأيت بعضها وأنا أمر ذات يوم قرب مزرعة المحتلين الأجانب . ومنذئذ وفكرة اقتناء إحداها تشغلني . أترى قليلا ما يمثل هذا بالنسبة لأسرتنا ، ورفاهيتنا جميعا؟ لم أسأل عن سعر هذه الآلات لكنني قررت أن أمتلك إحداها . وهكذا ، تجدني أخطط لذلك من الآن ــ مضاعفة رؤوس قطيع الماعز حتى يتسنى لي بيع الكثير من التيوس ثم يجب أن أهاجر إلى ما وراء البحر ، حيث يقال أن المال يكسب هناك بلا تعب كبير . كل شيء منظم ومرتب في رأسي . أنا منهمك الآن في تحضير أحسن طريقة لمفاتحة أبينا في الموضوع . يجب ألا تخونني الشجاعة أو تذهب كلماتي بلا إقناع أو وزن . لهذا ، مازلت أنتظر ، فامتلاك إحدى تلك الآلات يغني عن التعرض لكل المخاطر>> .

ذات يوم ، قادني أخي لمشاهدة الشاحنات.

كانت القرية تحيا ساعاتها الأكثر حيرة ولا معقولة كل صبيحة كانت تأتي بنصيبها من الأشياء التي لا تصدق . لم يعد بإمكان أي كان أن يحمي طمأنينته من التغييرات . لم ينج من ذلك حتى الطاعنون في السن وحتى أكثر الناس رجاحة وفطنة ، لقد اقتنع بعض القرويين أننا نعيش مقدمات قروب الساعة ــ لا سيما ، منذ أن عاد محند أوقاسي ، في تلك الصبيحة ، من أحد أسفاره وهو يحمل صندوقا صغيرا من المعدن والخشب الرقيق ، تنبعث منه كلمات وأغاني لطيفة وأشعل العلبة العبقرية دون سابق إنذار أمام القرويين المحلقين .

ــ رأس إنسان مختبئ بداخله ــ هكذا حاول أذكى الرعاة أن يفسر الأمر . غير أن جميع الحضور اعترفوا باستحالة مثل هذا الأمر بالمقارنة مع حجم العلبة . وما أن مضت أيام من الاستمتاع بالأغاني والكلمات الحلوة ، حتى اقتنع القرويون بالإجماع تقريبا أن هذا التشويش الجديد يشكل مؤانسة لا يستهان بها في حياتهم وأن أبعد ما يكون عن علامات الطوفان المرتقب . وهكذا حفظت أغاني ونكت عن ظهر قلب حتى لم يعد من المفاجئ والنادر أن تسمع عقلاء القوم يستشهدون في أحاديثهم بهذه العبارة : < كما قال الراديو هذا الصباح ....> وبطبيعة الحال ، ما أسرع ما كانوا يعدلون عن تلك الزلات اللسانية وقد تملكهم الحياء والخزي من السقوط في مثل هذه المطبات التافهة .

أما ما كان يدخل البهجة على قلوبنا نحن الأطفال فوق كل شيء ، فهي السيارات التي بدت الصدف توصلها حتى مشارف قريتنا . فما إن سويت الطريق حتى تناهت إلى مسامعنا أصوات هديرها . يا له من مشهد وفرجة يوم رأينا ثلاث شاحنات كبيرة مغطاة بغطايات من قنب تقترب من قريتنا متتابعة وهي تطلق العنان لأبواقها! خرج الجميع فتابعنا بأنظارنا والدهشة تعقد ألسنتنا اقتراب الشاحنات من القرية ، لم يكن الطريق الصالح لسيرها يقطع القرية وإنما كان يمر قريبا ، هناك حيث كانت الأرض أكثر انبساطا . ولما بلغت الشاحنات مستوى البيوت ، توقفت فترجل منها رجال أنيقي الملبس وأخذوا يتحدثون بلغة لم نكن نفهمها .

لقد صدقت تلك الأقاويل التي تتحدث عن تغييرات لا تصدق

وقعت منذ شهور ! كان الناس يقفون مشدوهين حائرين وقد راحوا ينقلون البصر بين هذه الآلات الشيطانية من جهة وبين كل هذه الأشياء المألوفة التي سيتغير مظهرها لا محالة فتصير غريبة عنهم من جهة أخرى . على البلد ، كانت تهب رياح تغيير واستئصال ناتفة كل الأشياء الثابتة وطابعة كل ما تمسها بخاتم الغرابة ! إن مفهوم الناس المتأصل للأصوات والصور والمسافات والحركات قد انقلب رأسا على عقب ، لقد اقتنع هؤلاء من الآن أنهم يمكن أن يستيقظوا غدا بذيول تتجاوز الطرف الأسفل للعباءة أو يروعهم مشهد طلوع الشمس من مغيبها .

سهر الناس بالجامع حتى الهزيع الأخير من ليلة أول يوم

وصلت فيه الشاحنات إلى القرية . لقد خيم صمت محرج خلال الظهيرة كلها على تجمع القرويين . لا أحد تجرأ بأخذ الكلمة ، إذ من جهة لم يكن بإمكان التحدث مع تجنب مثل هذه الأحداث الكبرى ومن جهة أخرى ، لم يكن من السهل الحكم على مرمى هذه الأحداث ومستقبلها . وهل بالامكان إبداء رأي قد يكذبه الغد؟ غير أن قدوم الغسق المتبوع بظلمة الليل النازلة تدريجيا ، فتح شهية الناس للحديث ، فأخذوا يتهامسون في البداية ولكنهم سرعان ما اطمأنوا فراحوا يطلقون الأحكام بثقتهم المعهودة . لقد ذكر شيخ القرية ، وهو رجل ما زال في عنفوان سنه وإن كان بطنه الضخم يعيقه أكثر من العجزة والمعوقين ، ذكر مناقب رجل رائع كان إماما وشاعرا فتنبأ بكل التقلبات التي نعيشها وغيرها التي سنحياها قريبا هي أعجب وأغرب من هذه . في البداية ، كانت الكلمات تتزاحم في حلقه قبل أن تجد مخارجها عبر شفتيه في صفير زلق . كان الشيخ يدعم أقواله بالاستشهاد بأشعار سبق للولي المذكور أن نظمها في الموضوع . أغلب الأبيات الشعرية تقصد البشر الذين سيطر عليهم الجحود مثلما سيطر على المسؤولين عن هذا الواقع المخزي . بين الفينة والفينة ، كان الشيخ يتوقف عن الكلام ليتنهد بصخب . كان سمينا وضخما حتى أن أغلب أبواب بيوت القرية كانت لا تتسع لحجمه إذا ما حاول عبور عتباتها الضيقة . وحين كان يضطر إلى التنقل ، لم يكن هناك سوى بغل وديع أبقع قادر على حمله .

لم ترجع الشاحنات غداة ذلك اليوم ولا خلال الأيام التالية ، غير أن ذكرى مرورها ظلت عالقة بالأذهان . وذات يوم بينما كنت أنا وأخي نرعى الماعز قرب الطريق المعبد ، سمعنا هدير محرك آت من بعيد . على الفور ، جرني أخي إلى داخل نوع من الغار مخفي بين أغصان شجر الفلين ــ وهو يفسر لي حركته ــ < ليست كل الشاحنات شبيهة بتلك التي توقفت قرب قريتنا . فبعضها ينقل رجالا مسلحين يطلقون النار على كل ما يجري أمامهم>

لم يدخل أخي الخوف إلى قلبي وإنما أثار في نفسي رغبة قديمة دفينة تخبو أحيانا لتلح علي بشدة فيما بعد لطالما حلمت بامتلاك سلاح أطلق النار به على العصافير والأرانب ! لقد قضيت مع أترابي خاصة أحمد والطيب أياما وأياما نبحث عن أنجع طريقة لصناعة ما يشبه البنادق ، غير أننا لم نفلح سوى في صنع أقواس ومخروطات من عصي القصب المفرغة من نخاعها والمحولة إلى أسلحة تدفع ذخيرتها بالضغط ، وهو ما لم نقتنع به أبدا . الشيء المعدني وحده كان يغرينا ، والواقع أننا كنا نحلم دوما بالكثير من الأشياء المعدنية ــ آلات تطلق الرصاص و أخرى تسير على عجلات أو تطير في السماء كالعصافير . كنا نقضي وقتا في البحث عن ضالتنا بالمزابل ، حيث كانت الكثير من الأشياء التي نعثر عليها تزيد من حدة رغباتنا في الإبداع والهروب من واقعنا . ذات يوم ، اكتشفنا دراجة صدئة لم تكن تنقصها سوى العجلات والكرسي والسلسلة الجاذبة والمقود فرحنا نقلب بجدية كل الإمكانيات التي توفرها مخيلاتنا لاستعمال ذلك الاكتشاف الثمين . يومها ، لم نفترق إلا وقت العصر لكن دون أن نتمكن من التوصل إلى الفكرة الأكثر نجاعة وإن كنا قد أقسمنا فيما بيننا أننا سنعود غدا إلى الفرضيات المفيدة التي طرقت رؤوسنا

كان الموسم صيفا ، لما كنا نطوف بالمزابل مستنحين فرصة غط جميع سكان القرية في قيلولة عميقة تخفف عنهم القيظ المصلي للأجسام العرقى ، لم أكن أملك مظلا فسودت الشمس جسمي كـــ < زقور > شجرة هرمة حتى أن أمي تعودت أن تدعوني < آكلي أوزال > أي زنجي منتصف النهار . المخلوقات الحية الوحيدة التي كنا نصادفها وسط المزابل هي الدجاجات التي

دوخها الحر فراحت تحفر حفرا تندس فيها إلى نصف أجسامها حتى تستفيد من الرطوبة النسبية للفضلات . كانت تنظر إلينا ببلاهة وقد انفلتت ألسنتها من مناقيرها كما تنفلت ألسنة الكلاب اللاهثة التي أرهقتها مطاردة الصيد . كنا نعلم أن المزابل مملوءة بالفئران ولكنها كانت تفر أو تختبئ بمجرد شعورها باقترابنا .

منذ أن جاءت الشاحنات لتقلق مجرى وجودنا الهادئ ، توقف اقتحامنا للمزابل . لقد كان ما حلمنا به طوال حياتنا قد تجسد هنا أمامنا . الآن ، بدل أن نتجه إلى المزابل ، صرنا ننعزل نحن الثلاثة تحت ظل الأشجار ونروح نتحدث عن الشاحنات وذات يوم ، أخبرنا أحمد:

ــ < يبدو أن الآلات التي رأيناها هنا ليست هي الأفضل . هناك آلات أقوى منها باستطاعتها صعود الروابي . المرور فوق الأشجار . محند أرزقي هو الذي يقول هذا . فهو يزعم أنه سبق له ركوب إحدى الشاحنات > .

والحال ، أن هذا العمل الفريد هو الذي كان يغذي تفوق محند أرزقي منذ أيام . لم يكن يعارضه أي طفل إذ كان جلنا يأمل في الحصول على تفاصيل دقيقة مولعة لهذه النزهة الحلمية . وفي انتظار ذلك ، كان يتبختر أمامنا وهو حريص على إخفاء أسراره ، مكتفيا بين الحين والآخر بتلميحات غامضة عن السرعة اللامحدودة لتلك الآلات وكراسيها الوثيرة ودغدغة الريح لشعر راكبها وهي منطلقة كالأسهم لا تلوي على شيء .

غير أننا سرعان ما أهملنا محند أرزقي وعمله الفريد المعقد إذ عادت الشاحنات من جديد إلى ضواحي قريتنا وقد تزايد عددها الآن إلى درجة أننا اطلعنا على تنوع أصنافها وأصبحنا قادرين حتى على تمييز اسم كل واحدة منها . لقد نسينا أشياء كثيرة اعتدناها ــ طوافنا بالمزابل ونبشها ، لعبة الكلل، تدوير الدوامات ، نصب الفخاخ لليمام وعصافير < الحريش > . همنا الوحيد صار اعتلاء رابية قريبة لمشاهدة وصول الشاحنات . كان بمقدورنا رؤيتها وهي مقبلة على بعد عشرة كيلومترات من القرية وذلك حين تنعطف عند الجسر العابر للنهر . وذات ليلة، رأيناها تقبل في الظلام وقد راحت أضواؤها تمزقه كعيون فسفورية تخترق الدهماء المخيمة على العالم. كانت تتقدم حافرة الدجى كقلابات مضيئة .

تابعتها نظراتنا المشدوهة وصدورنا الضيقة تكاد تنفجر تحت تزاحم وثبات قلوبنا الغضة وببطء قطع صوت متردد يبعث على الشفقة الصمت الثقيل الذي لم تكن تتخلله إلا التنفسات المضغوطة:

ــ كلا ، ما كنت أقوله لكم غير صحيح . لم أركب أبدا إحدى هذه الآلات.

نزل خبر بناء مدرسة في القرية مفاجئا عنيفا . كنت ألعب في المروج وقد غطى العشب جزءا من خصري فرحت أحلم بكراسي مستقيمة وبمحافظ جلدية جديدة . كان الكبار يؤكدون أن المدرسة ستغير أشياء عديدة في سلوك القرويين وأذهانهم ، لذا أخذت أتخيل كل الأشياء التي ستختفي : العصافير وريشها الناعم ، السحب المسافرة وأشكالها الهشة العابرة ، جذوع الأشجار بعقدها الملتوية ، ألفة القطعان التي نسوقها إلى المراعي عند كل فجر . و إلى جانب ذلك ، كنت أرى الحياة الجديدة التي سنحياها: أعواد الطباشير الهشة ، الرائحة النباتية للأوراق المزدحمة بالصور ، النطق الجديد الذي يشوه الشفاه ويجعل مخارج الأصوات أكثر فخامة ، الأصباح الهندسية للشمس الباهتة أو الأمطار المروضة . تبا للجري اللامحدود وراء المعزات الرعناء كنت أتصور أن التغيير سينزل مفاجئا عنيفا ذات صبيحة متجمدة تحت أشعة شمس محايدة . عصافير حمر الصدور والقبرات وزريعة الكتان والشحارير ستألفنا ولن تهرب مستقبلا إذا ما دنونا منها وإنما ستكتفي بالمكوث ههنا كعصافير حبرية تزين كتاب الطبيعة المصعوق .

كنت أفكر في كل هذا بإحساس غير محدد تتقاذفه أشد النبضات تناقضا . كنت عرضة لاختراق المجهول دائما غير أنني شعرت هذه المرة ، أن هذا المجهول سيتخذ شكل قضبان غير مرئية ستمنعني من الاستمرار في ارتياد المزابل لنبشها ، في نصب الفخاخ للعصافير داخل الأحراش التي لا يخترقها المطر

، في قطع الأغصان لتجريب لقاحات مستحيلة ، في مطاردة أكثر حيوانات الغابة ندرة ببندقية لا وجود لها إلا في مخيلتي .

جاؤوا يعتمرون خوذات ويحملون عتادا كبيرا . كان أغلبهم أجانب ، إلا أن بعضهم كان مثلنا تماما ، يؤذي الصلوات الخمس ويتكلم لغة نفهم قليلا منها .

بسرعة شديدة ، قاموا بكل شيء ، فوق الأرضية المعدة لبناء المدرسة ، كومت لوحات معدنية ضخمة . كانت أشعة الشمس تنعكس بعنف على المعدن وكانت رائحة دهن خانقة تحوم في الجو .

غالبا ما كنا نذهب نتفرج على الرجال وهم يشتغلون . بعض الأطفال ، كانوا يذهبون خصيصا لشم رائحة الدهن التي يحبونها . أحد الرجال المشتغلين في الورشة ، لم يكن يملك إلا يدا واحدة ، غير أنه كان ماهرا جدا وينشط كزنبور بناء . كان يسمى سعيد ، لم يكن من بلدنا وإنما كان أصله من بلد مجاور ، ولما كان يتكلم لغة مطابقة للغتنا تماما ، كان يتحدث إلينا طويلا وهو يشتغل منكفئا على صناديقه المزدحمة بالصوامل وعلى لوحاته المعدنية الضخمة ودلائه المملوءة بالدهن .

كان يقول لنا : سيتغير العالم بالنسبة إليكم . كلا ، لن يصير أفضل مما هو عليه اليوم وإنما ستأخذ الأشياء في رؤوسكم أشكالا أخرى ولن يكون لأحكامكم نفس الهندسة ونفس الأبعاد . الحبر المتدفق من الدواة سيغير دماءكم . عصافير وطائرات مروحية ، صوف وقطن اصطناعي ، حواشي الاحتفاء وحبائل الصيادين ، كلها أشياء ستكتشفونها مثلما ستكتشفون آلات التسلية التي تستعمل أيضا في التعذيب ، إذ سترون تلك الأشياء ذات التشابه الوهمي بعيون مغايرة بحيث تتغير نظراتكم تماما وتتجاوز حد تلك الأشياء من جانبها الأشد براءة .

الأكيد أنكم ستصارعون ذلك في البداية ، لكن لصاق الكلمات سيكون شديد المفعول في نفوسكم . لن يخترق أي نداء نجدة جدار الابتسامات الخادعة المصطنعة لجدب طمأنينتكم الوهمية . أشكال ترمي إلى نفس المرمى

ولكنها تقضي على بعضها البعض وأشكال أخرى متناقضة خلقت لتسليط نفس العذاب . لقد قننوا كل شيء حتى أخطاء الطبيعة . إنهم يعلمون أن حرقة النار ولسعة البرد تؤديان إلى نفس الجرح تماما . ستطلعون على الطريقة التي يحمل بها الموت في البسمة وعلى فعل الإساءة بحركة الهبة الوديعة .

إن للكلمات أوجه متعددة . هل سبق للكلمات أن أغرتكم؟

انتظروا إذن الصور والآلات التي سترافقها! ستطلعون على برودة المستطيل ، والزجاج واللدائن . أشدكم حيلة ودهاء ، لن يجد حتى ثغرة يفلت عبرها من زحمة الزوايا والنعوت والاستعارات .

سيجزئونكم ويحسبونكم ويضعون على كل واحد منكم علامة مميزة وستتكلف الآلة بمنح كل واحد منكم وجها جامدا ورقما نهائيا . لن تحدثكم الأشجار من الآن ولن تلامسكم العصافير بأجنحتها يومها . ستتعلمون أن لا شيء أرعب من صوركم الذاتية ، الصور التي تبدو لكم غير ثابتة إلى درجة أنكم سترغبون في تحطيمها . أتعتقدون أنني سعيد بوجهي المحمر وبأعضائي المقطوعة؟ توجهوا إلى الأشجار واسألوها هي المقطعة الممزقة عن الألم الذي يتصاعد من جذورها المبقاة حية ؟

لم نفهم كل ما قال لنا إذ أن لغته كانت مشحونة بكثير من الكلمات التي نجهل معانيها ، وعلاوة على ذلك ، كنا متأكدين أنه لا يتكلم دائما ليفهمه الآخرون ولكن كان يسكنه عفريت ثرثار يقذف الكلمات من فمه وذات يوم أسر لنا :

ــ الآن سينتهي بناء المدرسة ، لكن لا تظنوا أنها ستنتصب هنا بريئة رحيمة لإرواء عطش الرعاة الصغار . ليس للمعرفة بياض ولكن لها لون العصا . آه ، أجل ، احلموا بصور بريئة وبكلمات لا تجرح الفم وبنار مدفأة في شتاء قارس ، سيأتي بالتأكيد شيء آخر لاحتضان جوعكم وطيبتكم اللاواعية .

والواقع أن المدرسة سرعان ما بنيت ، ومع قدوم الخريف ، عوض أجانب آخرون البنائين . كانوا يرتدون ملابس أجمل بكثير من تلك التي كان يرتديها العمال البناؤون وكانت هيئاتهم أكثر هيبة . بعد بضع ساعات ، رحلوا

تاركين واحدا منهم ، كان يبدو أصغرهم ، ليكون معلم المدرسة القروية . كلا ، لم يكن قاسيا بحيث أن صور المعرفة الثمينة المقحمة بضربات العصا التي سكنت جوارحنا لمدة طويلة لم تتأخر عن إخلاء أذهان الشباب . أما أنا ، فلم أدخل المدرسة لصغر سني ولكنني عازم على تعلم القراءة فيما بعد وبسرعة كبيرة علاوة على ذلك وهو ما مكنني من سرد هذا اليوم .

كل مساء ، كان أخي يحكي لي بإعجاب عن صفوف المقاعد الآجورية المتميزة (لم تكن الطاولات قد وصلت) وعن الصور الملونة التي تفتح الجدران على الأحلام . كان يقول لي أن حفيف أوراق الزيتونة الكبيرة يسمع حتى في حجرة الدرس ولكن ما نراه ليس أوراقا فحسب وإنما زحمة من الألوان فوق الطبيعة وسفنا صغيرة تعب البحار وحيوانات مجهولة لا تحصى كانت تبدو كأنها تنبثق للتو من الكتاب الذي كان المعلم يمرره من صف إلى آخر .

ذات يوم ، جلب إلى البيت عود طباشير أخضر ومرره إلينا كي نلمسه ونشمه ونزن صلابته ، دار به على الحضور بفخر ، لا سيما وقد جاءت بنات الجار لرؤية ذلك . لقد أكد لنا أن < المرء > يمكنه أن يستخرج من هذه القطعة الصغيرة الملساء أعاجيب لا يتصورها العقل وأنه هو قادر على جلب أعواد أخرى مثل هذا . وفي الغد ، كست صور الكلاب والأرانب والزهور والبيوت الخضراء كل الجدران المجاورة والحجارة والصخور القريبة .

غير أن أروع يوم من أيامنا تلك ، هو يوم وصول الكتب المصورة . لم توزع على الجميع . نصف تلاميذ القسم فقط فاز بها . وقد كان أخي من بين المحظوظين ، فمنح له كتاب يشترك فيه مع أحد رفاقه وهو المدعو آكلي . كان هذا الأخير يحتفظ بالكتاب طيلة الصبيحة ثم يسلمه إلى أخي في الظهيرة قبل خروج القطعان إلى المراعي . كنا نكون مجموعة من خمسة أطفال : أنا وأخي وأحد الرفاق العابرين وبنتي الجار . معا نذهب لجلب الكتاب . في الليل ، اتفقنا على نظام تبادل الكتاب الواحد تلو الآخر لتمتيع النظر بصوره وخطوطه . وهكذا ، ابتدعنا لعبة جديدة ، وهي لعبتنا المفضلة بلا شك ، وكانت تتمثل في أن نجلس على شكل دائرة ونضع الكتاب في الوسط ونروح نقلب الصفحات ونشير

إلى ما كنا نحلم بامتلاكه من بين الأشياء الجميلة المصورة : أشجار ، منازل ، دكاكين ، ملفات ، صحون ، طاولات ، خزانات . ولكم صرنا أثرياء تمتلئ مخازننا بالكنوز الثمينة . أحيانا كانت اللعبة تنتقل إلى القول : لمن نحب أن نكون مشبهين من بين كل أولئك الأشخاص المصورين عبر الصفحات وغالبا ما كانت مظاهر اللباس هي التي تحدد اختيارنا . وذات يوم ، وقع عراك بيننا ، لأن إحدى بنتي الجار ، كانت تريد أن تشبه طفلا ، اعتبرناه كلنا بالإجماع أنه ذكر!

لم يكن أخي يشاركنا في هذا اللعب لأنه كان يعتبر نفسه أولا أكبر سنا وثانيا لسبب لم يفصح عنه أبدا . حين حمل معه الكتاب إلى البيت أول يوم ، جلس بسرعة وراح يقلب صفحاته بحيرة بادية ، باحثا عن إحدى تلك الآلات التي تحرث الأرض وحدها ــ كنت متأكدا من مسعاه ــ ثم وضع الكتاب وقد اكتأبت سحنته وبقي صامتا لمدة ثوان.

العديد من الأشياء التي كانت موجودة في الكتاب كانت مجهولة بالنسبة إلينا . كان يصعب علينا أن نتنبأ بأنها تصلح للأكل أو الجلوس أو التنقل . أما أنا ، فقد كنت أحب الخيل فوق كل شيء . كنت أجلس أمام الكتاب وأروح أتأملها لساعات طويلة فإذا بها تمزق بغتة إطار الصفحات وتنطلق مثيرة النقع بحوافرها موقظة هواء الظهيرة النائم ، عابرة القرية الصامتة ثم تصير خفيفة هشة قبل أن تغيب في لجينية الغيوم التي ينشرها مندف < قرداش > غير مرئي .

ثم وصلت صور أخرى ، فتجاوزت بأثرها كل ما لم نتخيله .

كان الأمر لا يصدق ! كلب يطارد رجلا في سلم عمارة . وكل سكان القرية كانوا يجلسون في قاعة الدرس ينتظرون نهاية هذه المطاردة وقد كادت أنفاسهم تتقطع . كانت شعور النساء قصيرة مفلفلة ، تغطيها قبعات وكانت أصواتهن رقيقة عذبة

وكنا نصغي إلى كل هذا بينما كانت آلت العرض تئز أزيزا خافتا تطبعه رتابة منومة .

كل ما يعرض علينا يتعدى أكثر التخيلات خصبا : لباس الأشخاص الرائع ، داخل البيوت الجميلة ، ثياب النساء غير المحتشمة وسلوكهن اللا أخلاقي ، ثم ــ ذلك الوضع الغريب المضحك ــ إذ كانت النساء هن اللواتي يضربن الرجال ! لكن لا أحد كان يتجرأ فيضحك أو يعلق على المشاهد : كانت اللحظة شديدة الخشوع والإحراج بحيث أن المتفرجين كانوا قلما يجرؤون على العطس أو مسح الأنوف .

كان أزيز آلة العرض شبيه بطقطقة المطر الغزير المستمر . وكنت محرجا جدا لأنني مع مرور الوقت اقتنعت أن المطر ينهمر في الخارج فعلا ، فتذكرت يوم حاصرتني زوبعة ماطرة مصحوبة برياح عاتية فداخلني خوف شديد وأنا أشعر بالاختناق مثلما أحسست يوم أفرغ أحدهم دلو ماء بارد على رأسي وأنا ساه .

دام العرض مدة طويلة . ولما انتهى مصير بطل الفيلم إلى الموت مرفوقا بتنهدات حزينة من بعض المشاهدين ، كان الليل وشيك النزول فتقيأت قاعة الدرس جمهرة القرويين الذين جمعتهم ههنا أسباب غير معتادة فخرجوا صامتين وقد دوخهم هذا السفر في المكان غير المتوقع وأخجلهم تصرفهم الذي أقعدهم طيلة جزء كبير من الظهيرة ليشاهدوا بلا مبالاة هذه التسلية الصبيانية . غير أن شيخ القرية هو الذي غضب واستشاط بشكل واضح لأنه تخلف بطريقة لم يفصح عنها عن صلاة العصر . وهكذا راح يلعن بصوت خافت هذه الآلة الشيطانية التي تجعل المؤمنين ينحرفون عن أداء فرائضهم وهؤلاء القرويين الساذجين الذين تخاذلوا ساقطين كالصيد الأعمى في الفخ الذي نصبته تلك الصور الوهمية . إذا لو كانت الغواية أكثر واقعية ولو تجسدت أمامهم ههنا جميع الملذات والمتعات التي تبعد البشر عن الطريق المستقيم ، لكانوا قد انحرفوا كلهم دون التردد لحظة واحدة؟ إذا تخيلوا أنفسهم في مستوى الأجانب يملكون نفس الثروات ، حتى بلغ بهم الأمر حد قضاء ظهيرة كاملة بلا عمل ، يشاهدون

صورا خليعة؟ ما أتعسكم أيها القرويون المغفلون وأنتم تسوون بعناية الطريق المؤدي بكم إلى جهنم!

واشتد غضبه فراح يلوم نفسه والآخرين بلا استثناء ولما بلغ المسجد لم يخرج من حنجرته صوت الآذان العذب وإنما ندت عنه حشرجة غاضبة مبحوحة وراحت تمزق كالسوط التقوى النائمة للقرويين العبيطين .

أما أنا ، فقد عدت إلى البيت وقضيت ليلتي أحلم بالسلالم المتشابكة المعقدة وبالكلاب المسعورة وبالنساء المسرحات الشعر .

لكم تاق القرويون إلى مواصلة السفر الخيالي إلى تلك العوالم المزدحمة بالحياة النظيفة بالبشر الأنيقي الملبس ، لكن المؤسف أن الآلة ذات الأزيز الشبيه بطقطقة المطر المنهمر لم تئز لأسابيع طويلة . بيد أننا قد كنا قد اختزنا ما يكفينا من أحلام ونبضات لمواصلة تجمعاتنا الصبيانية والخوض في الحديث عن المنازل والملابس والنسوة اللواتي جئن للتجول ههنا بضع ساعات (تصور جميعنا أن ذلك دام أطول مما حصل فعلا! في جبالنا الوعرة . وقد كشف لنا ارزقي أوماوش أن أباه الذي اشتغل لسنوات في البلاد الأجنبية ، كان يملك بين أوراقه ، صورة امرأة تشبه نساء الفيلم ، امرأة ترتدي سترة طويلة تشبه سترة الرجال وتسرح شعرها بشكل فلفلي . لقد علمنا أيضا أن ذلك العراك المشهود بين والديه والذي مازلنا نتذكر مشاهده التي أقضت مضاجع القرية ، كان انفجر يوم اكتشفت أمه صورة المرأة ، الشيء الذي ما زال يحير أرزقي حيرة كبيرة هو أنه كان يحب الصورة حبا جما حتى أنه كان يدنو من أبيه كلما كان يهم بتقليب أوراقه عساه يمتع نظره بصورة المرأة المفلفلة الشعر . لم يكن يحب وجه المرأة الوضئ وملابسها الأنيقة فحسب وإنما كان يتوق أيضا إلى تلك الرائحة الطيبة الخاصة التي تفوح من الورق والتي كانت تذكره برائحة الخوخ الطازج . كنا مقتنعين جميعا أن أباه كان محظوظا لأنه عاش في ذلك العلم المزين بالسلالم التي تدير الرأس وبالرجال الأنيقي الملبس (هو الآخر كان أنيقا مثلهم في ذلك العهد طبعا) وبالنساء غير المحتشمات اللواتي لم يكن يتحرجن حتى من صفع الرجال إذا ما رغبن في ذلك .

ــ الأكيد أن أباك كان يعرف أولئك النسوة ذوات الأصوات الرقيقة اللواتي رأيناهن ، لهذا غضبت أمك .

ــ لا يجدر بالمرء أن يعرف أمثال أولئك النساء لأنهن يأتين بتصرفات لا يمكن أن نرضاها . لا بد أنه كان يعيش حياة غير شريفة بتعرفه بأمثال أولئك النساء !

كان أحمد يريد قول شيء مضجر ، غير أنه لم يحسن التعبير عنه فماتت الكلمات فوق شفتيه المرتعدتين . كنا نعرف أن ما كان يريد قوله شديد الخطورة ، لذلك صمتنا مدة طويلة بعد أن مات صوته . لقطع هذا الصمت الثقيل الذي كان يهدد بالتحول إلى حرج نطق دحمان ليقول أي شيء يخطر بباله :

ــ الأكيد أن أباك ندم على عودته إلى القرية .

فرد عليه الطيب بحكمة :

ــ المرء يعود دوما إلى بيته .

كانت سلطة الآلة ذات الأزيز شديدة إذ أن الصور المنبثقة عنها لم تكن تظهر مكانا واحدا وإنما كانت قادرة على ولوج أبعد الأمصار وإظهار أشد البشر اختلافا . عندما عادت الآلة ، أرتنا أناسا يتسمون بنوع من الغرابة رغم شبههم القريب من شبهنا ، أناسا يتزين رجالهم بأقراط في آذانهم وتلف نساؤهن أجسدهن في إزارات . كانت هناك رقصات معقدة وأغاني تصدر عن أصوات رقتها لا تصدق ، تقاطع قصة الفيلم بين الفينة والأخرى .

حرمني مرض خفيف من مشاهدة الفيلم في الأيام الأولى فرحت ألعن الحمى وقد زاد القرف والأرق ليالي المضجرة اضطرابا وخطرا . كان مرضا جديدا ، آلام رأس راحت تطاردني مدة سنوات طويلة . كنت أشعر بآلاف القرحات المضجرة تفترش تجويف جمجمتي . كانت أقل حركة تند عن رأسي تؤدي بي إلى الغثيان ــ غير أنني لم أكن أتقيأ أبدا وإنما كانت هناك جلجلة لا تحتمل عالقة بثبات بين حلقي وصدري . أول ما داهني المرض ، داهمني في الصباح الباكر ، بينما كانت أمي تدلك عجينة كبيرة لإعداد ما لا أدري من أرغفة الخبز أو السفنج . كنت أنظر إلى العجين وهو يتخذ أشكالا مكورة هشة إلى أن رست في رأسي فجأة فكرة أن أمي تعجن تلك المادة الدهماء المقرفة التي تملأ جمجمتي فأخذت أصرخ

كالمجنون ثم أغمي علي . في الغد ، تحسنت حالتي قليلا وبعد يومين استطعت النهوض من فراشي . شغلي الشاغل كان أن أتوجه لمشاهدة الفيلم ، ومن حسن حظي ، أنه كان ما يزال يعرض ! لو كان الفيلم قد رجع أدراجه ، دون أن أتمكن من رؤيته ، لكنت قد جننت بلا شك .

شاهد الناس هذه القصة الجديدة مرات عديدة حتى أنهم حفظوا عن ظهر قلب كل مشاهدها وكلما أوشك النسيان أن يطمس بعض اللقطات أو التفاصيل من ذاكرتهم ، هرولوا للإصغاء إلى الآلة السحرية التي تئز كالمطر المنهمر . وهكذا ، وجدت قاعة الدرس ما تزال مكتظة ، يوم شفيت من مرضي المقرف فاضطررت على التحايل للعثور على لبنتين أقتعدهما . كان قلبي يدق بقوة وأنا أنتظر أن تغلق النوافذ إيذانا بمروق شعاع الآلة المسلط على الجدار الأملس .

كان الفيلم يعرض شخوصا لا يشبهون الأجانب . بل إن بعضهم كان يعتمر عمامات كالتي نعتمر بها غير أن هناك العديد من الأشياء الخرافية الساحرة مثل ذلك الفيل الذي يحمل رجالا على ظهره للأسف ، لم يبرزه الفيلم إلا مرة واحدة وبصورة خاطفة وعبثا ، انتظرت ظهوره من جديد . كانت هناك امرأة تلف جسدها بقماش مزركش وتغني بصوت حاد كصوت عصفور . كان بعض القرويين قد اطمأنوا الآن ووثقوا من أنفسهم فكانوا يجرؤون على الضحك أو التعبير على إعجابهم بهذا المشهد أو ذاك . لم يعد أزيز الآلة الباعثة للصور يثير في نفسي القلق القديم لأنه لم يعد يوهمني بهطول المطر . فجأة ، خيمت لحظة تشنج كبير فراح المشاهدون يتنهدون كمن داهمهم ألم ممض . لحظة ، دنا الرجل بقضيب حديدي أسفع من عيني طفل ، شد الجالس بجواري ذراعي بقوة ثم أجهش بالبكاء وغمغم ودموعه تنهمر :

ــ سيعميه الآن إنه لا يعلم أنه ابنه الحقيقي!

لم يكن تخوف القرويين وحذرهم بلا أساس . فالصور المتحركة الجذابة والشاحنات التي جاءت تنذر لم تكن تهدف إلا لتحضير وصول الجيش . وما هي إلا أيام معدودات حتى جاء العساكر يصحبهم هدير المحركات وطقطقات الأسلحة المختلفة ، فرحَّلوا القرويين الذين يقطنون قمة الجبل ونصبوا خيامهم مكان ديارهم التي داهموها بآلياتهم فهدموها غداة وصولهم .

والواقع ، أن القرية كانت تعيش ، منذ أسابيع خلت ، جوا متميزا . كان الناس الكبار يتحدثون بكثير من التلميح والرمزية . وكان الرجال يخرجون ليلا ، بطرق غريبة غير عادية . كانوا يتسللون بدل أن يمشوا عبر الأزقة ، متبادلين كلمات مقتضبة بصوت خافت دون أو يتوقفوا لبعض الوقت . ذات ليلة ، ارتفعت أصوات الرجال في ساعة متأخرة من الليل وراحت تصدح بنشيد موحد قوى جمد عظامنا ، قبل أن يحقننا ، مع تعودنا لعي أنغامه ، ذلك الإحساس الغريب بالسعادة . بقينا نصغي صاغرين كان نشيدا جديدا تماما . فإن كان المصلون يمكثون قليلا في الخارج بعد صلاة العشاء ليبتهلوا ، لم يكن الرجال ينشدون هذه المرة باللغة المقدسة وإنما كانوا ينشدون بلغتنا . كانت أصواتهم المنطلقة موحدة في انسجام رائع شبيهة بانشطار يمزق الظلام المدلهم .

وطن الأجداد النبيل

الرازح تحت وطأة الأجنبي الدخيل

قبل بضعة أيام ، قدم رجل إلى القرية . لم يكن يرتدي ملابس كملابس الفلاحين . اتجه إلى منزل عمي أحمد ، حيث لحق به رجال القرية بعد وقت قصير . مكثوا مجتمعين طيلة قسط كبير من الظهيرة ومنذئذ ، لم يعد القرويون يتصرفون كما كانوا يفعلون عادة . في الغد ، اختفى الغريب.

انكب العساكر على بناء معسكرهم مدة أسبوعين كاملين ، تاركيننا نؤدي مجريات حياتنا بشكل عادي . وذات يوم ، نزلوا من مرتفعهم فجمعوا أهل القرية وراحوا يعنفونهم بخشونة ، حتى يظهروا للجميع دفعة واحدة أنهم من الآن فصاعدا أسياد الموقف الوحيدون وأنهم يملكون سلطة بلا حدود . لقد خطبوا فينا مهددين متوعدين وكلفوا علي أوماوش بأن يترجم خطبتهم

المتوعدة فراح يترجم قدر المستطاع وهو يرتعد مثل ورقة في مهب الريح . تركونا مكدسين مدة طويلة في الساحة حتى إذا أخذ الليل يخيم بظلامه مصحوبا بعويل الرضع الجائعين الهلعين ، رفع العسكري الذي تحدث طويلا رشاشه وراح يطلق النار في الهواء ثم أشار إلى جنده فطردونا إلى بيوتنا أكثر مما أخلو سبيلنا .

لم يعد المنظر المحتضن للجبل ملكا لنا . لقد عوضت قسوة الأسوار المبرقعة بعدائيتها خضرة الأشجار المكورة . لم تعد الأشجار إلا مجرد جذوع قزمة خالية من كل حفيف . كان العساكر شديدي الخوف ، بلا شك ، من ما يرتبط بالحالة القديمة لمرتفع الجبل : القرويين ، الاخضرار المتحرك ، امتداد الظلال ، حفيف الرياح عبر الأوراق لذلك ، كانوا يقضون وقتهم في قطع الأشجار واستئصال الأحراش وتفتيش الرجال ومطاردة الرعاة وقطعانهم حتى زقزقة العصافير أصبحت تقلقهم فعينوا جنديا مسلحا برشاش ليقف باستمرار بين ما بقي من أشجار وكلفوه بمهمة إطلاق النار على أي عصفور يحلق في فضاء المعسكر حتى أن ذلك الجندي كان يقضي حاجته بسرعة وعجل ، مخافة أن يفلت من ناره عصفور محظوظ . كم مرة رأيناه يسرع كالمنكوب باتجاه الأحراش ليعود جاريا بسرعة أشد ويداه تمسكان الرشاش المزود بالرصاص وقد بدا أكثر تأهبا لإطلاق النار.

كان رجلا ذا وجه منقط بالنمش الأحمر ، جسده يتصبب عرقا دائما وكأنه يقضي حياته في الجري . غير أنه كان قناصا ماهرا . لقد تأكدنا من مهارته في الرمي يوم قنص أمام أعيننا المشدوهة بازا كان يحلق عليا .

خلال أسابيع معدودة ، قلب العساكر حياتنا عسرا حقيقيا كانوا بحاجة إلى الماء والحطب والغذاء . وكانت أذرع القرويين وقطعانهم هي التي توجب عليها تحمل كل ذلك كانت حظيرة سعدي وعلي ذلك الرجل المعروف بمروءته تفرغ بشكل محسوس بعد ما قاده العساكر إلى معسكرهم مرات عديدة متهمينه بممارسة نشاطات ثورية . وذات يوم ، خرج ابنه مقران من البيت وهو يسوق قطيعا يتكون من معزة هرمة وجديين .

كان العساكر يقولون من الأفضل أن نأكلها نحن .

وذات يوم ، نزلوا أيضا من مرتفعهم لإحصاء الشبان الذين يتوجب عليهم تزويدهم بالماء على ظهور الحمير . كان الشتاء في عزه . لقد جمعوا القرويين في الساحة الصغيرة المغطاة بصحن المسجد ، بينما كن الثلج يتساقط ببطء ندفا صغيرة من الصوف الناصع البياض . كنت ههنا بين الرجال الكبار وقد راح الصمت يسحقني تحت وطأة الطبيعة الميتة . وقتها دفع الجوع عصفور < أحمر الصدر > ليحط على قرميد الجامع الأحمر ولبث هناك طويلا كما لو كان يعلم أن الرجال كانوا مستسلمين تماما إلى درجة أنه لم يكن بإمكانهم الإساءة إلى عصفور مثله . كانت كلمات العساكر الجلفة ــ التي لم أكن أفهما البتة ــ تحفر شقوقا صغيرة في الصمت الذي ما أسرع ما كان يطبق من جديد حتى يغدو صلدا كالصخر الأصم ، وعلى النقيض من ذلك كان صوت المترجم أقل رزانة .

اختير أخي من بين الشبان الذين عينوا لجلب الماء . ما زلت أتذكره وهو يعود ذات مساء إلى المنزل ، محمر الوجه ، مزرق اليدين من فرط البرد القارس فينكمش في زاوية ويروح يبكي بصمت . لشدة ما تأثرت ليلتها فرحت أقاوم دموعي بكل ما أوتيت من قوة . كنت أرى أخي الأكبر يبكي لأول مرة هو الذي لم تبخل عليه الحياة ، رغم ذلك ، بفرص ذرف الدموع ، بيد أنه كان يعرف كيف يخفف بكتمان كبير أقسى طعنات الحياة .

ومنذ ذلك اليوم تغير كما لو كانت الدموع قد خلصته من روح الإحجام والسلبية التي كانت تركد في أعماقه السحيقة .

لم يكن الشتاء أشد حزنا وبرودة كهذا العام . لم يكن يحق لنا حتى الخروج إلى الحقول لجلب الحطب اليابس كانت القرية مسوَّرة بالأسلاك الشائكة . لم يكن الناس يشعرون بانطباع الهدوء وإنما كانوا يعيشون كابوسا صامتا . أما أنا ، فإن ما كان يضجرني أكثر أن وضعيتنا الجديدة كمحجوزين كانت تحرمني من كل إمكانية لنصب فخاخي تحت تلك الأحراش الكثيفة التي لا تخترقها قطرات المطر . غير أن حزني سرعان ما خف ، وقد راحت مجموعات من

العصافير المختلفة ، حمر الصدور ، زريعة الكتان ، والبلابل والشحارير تزور القرية ، طالبة الدفء فوق سطوح البيوت وفي ساحاتها. وهكذا أصبحت أنصب فخاخي خلف المنزل مباشرة ، عند كومة علف الزيتون ، حيت كانت العصافير تحط لتنقب غذاءها . من حسن حظي أن معصرة الزيت كانت بجوار بيتنا .

أصبح سلوك أخي غريبا . فغالبا ما كان يغيب عن المنزل ، لمدة طويلة وفي أكثر الساعات تأخرا . مرات عديدة فاجأته مع والدي يتحدثان بحرارة في موضوع ــ أنا متأكد منه ــ تغير سلوك أخي . وعندما كنت أقترب منهما ، كانا يسكتان بغتة أو يحاولان في تلعثم طرق موضوع آخر . وعلاوة على ذلك ، فالجميع في القرية تعلم التصرف بشكل مغاير . لم يعد للكلمات نفس المعنى كما لم يعد للعلاقات العائلية أو الصديقة نفس الإطار السابق .

وذات يوم، علم جميع السكان ، بما فيهم الأطفال ، أن رجالا من شعبنا لجئوا إلى الجبال لمحاربة المحتلين الأجانب .

لقد غادر القرية شريف أورزقي وموح الطاهر وعلي واحمد وحمو مزيان . كل الصبيحة ، كانت القرية تستيقظ على افتقاد أحد شبابها الذي يكون قد لجأ إلى الجبل . كنا ننتظر عودته مدة يومين أو ثلاثة أيام ، ثم نصبر بقطع الأمل .

بمجرد ما توقف البرد القارس ، عدت إلى لقاءاتي مع صديقي أحمد ، كنا نتجه للجلوس تحت التينة الكبيرة ، حيث كانت الدجاجات تأتي صيفا ، للبحث عن ظل يقيها أشعة الشمس كانت الشجرة تشبه في الواقع هيكلا عاريا بأغصانها المجردة المتشابكة ، بيد أن جذعها كان يخفينا عن الأنظار وكنا نشعر بالأمن هناك لطرق أشد المواضيع جرأة . كان موضوع المحاربين الموجودين في الجبال يشكل أساس أحاديثنا المفضل . كان أحمد يؤكد لي أنهم رجال عمالقة قادرون على تخطي البيوت والأشجار كل واحد منهم قادر على مواجهة عشر عساكر أجانب . لم أكن أجرؤ على التشكك في كلماته، غير أنها كانت تبدو لي ، مع ذلك ، مبالغا فيها قليلا ، إذ كنت أفكر قليلا في موح الطاهر وحمو مزيان

وأجدهم يتمتعون بتلك الهيئات الجديدة ما فوق البشرية . ومن البديهي أننا نحن كنا في قائمة الرجال الذين سيلتحقون بالجبل بمجر ما نكبر قليلا .

وذات يوم ، أذن لنا العساكر بالخروج إلى الحقول لرعي قطعاننا وتفقد أشجارنا ــ كانت تباشير الربيع الأولى تبين وكانت أشجار المشمش تبدل أزهارها بثمار خضراء صغيرة . كانت كل القرية تعج بالحركة كان الجميع يحضر الفؤوس والمقصات والمناجل .

خرجنا من القرية في نفس الوقت متجمعين رجالا وماعزا لم تعد أية عائلة تحتفظ بزوجها من الثيران . لم تكن القرارات الجديدة التي فرضها العساكر تسمح إلا بكسب الماعز والحمير . تفرق الرجال عبر الحقول والمروج كالجديان وانصرف كل واحد منهم إلى حقله أو بستانه . مر علي زمن طويل وأنا محروم من الانغماس في الاخضرار ومن الإحساس بلحسات لسان العشب الأحرش على يدي وساقي . لكم يمتعني تفتت طوب الحرث تحت قدمي . لقد أسند إلى أخي رعي الماعز . كنت أشعر أن هذا النهار كان يخفي شيئا خطيرا بالكاد ، لذلك لم أفكر حتى في نصب الفخاخ ــ التي تركتها في البيت علاوة على ذلك .

كان أخي جد مشغول في الحقل ولم يلتحق بي إلا مع اقتراب المساء ، حين صبغت الشمس بلون الدم الشاحب أعالي الوادي . مشينا معا حتى البيت . وقتها حدتني كما لم يفعل من قبل أبدا . صحيح أن أخي كان يكبرني بعشر سنوات ، غير انه لم يبدأ أبدا بمثل هذه الثقة والنضج . كان يتكلم ، فتأخذ الغابات والعصافير والزيتون والعنف والدم والسماحة أبعادا أخرى وكثافة لم أعهدها من قبل في نظري . لقد فهمت وأنا أستمع إليه أنه يمكن للمرء أن يكون عاريا وثريا ، ماهرا ومتواضعا ، قويا وكريما ، مهيبا وبائسا . للحظة ، تخلصت من خوفي من الأجانب الذين كانوا يصولون كل يوم بجزماتهم الثقيلة فيسحقون أحلامنا وطمأنينتنا .

ذات يوم ، لن يكون هذا إلا ذكرى سيئة ستغطيها مطالب أجمل وأروع . لست أنا القائل وإنما يقول ذلك رجال أكثر حكمة مني . حياتنا ستتغير أيضا . لن نستعمل قوانا في قتال بعضنا البعض . هذا الحقد الذي يضخم قلوبنا

حين ينجح أحد الجيران في عمل ما أو حين يمر أحدهم ــ مجر المرور ــ بقطعة ارض نملكها ، هذا الحقد سيعوضه شعور السماحة والكرم والوصول إلى هذا ، لابد أن نقبل بمعاشرة الموت والدم لوقت ما . مثل هذا كمثل الشجرة التي نقلمها . يجب ألا ينسينا سيلان النسغ وعد الثمار . الدم ضروري أحيانا لسقي صلب الفاكهة ومدها بهذا الاحمرار الذي يجعلها كاملة النضج .

لما استيقظت غداة ذلك اليوم ، لم أعثر على أخي بالمنزل ، لم أره لا في اليوم الموالي ولا خلال الشهور التالية .لقد دخل في أحاديثنا أنا وأحمد كلما لجأنا إلى ظل التينة الكبرى لطرق الأشياء الخطيرة . كنت اعرف أنه صار رجلا كبيرا جدا ، قادرا على تخطي الأشجار والأسوار . وكنت جد فخور به .

القسم الثالث

1

ورث عن أمي هذه النباهة التي لا تقدر بثمن : أن ألتقط بأول نتفة قملة مندسة في أكثر الشعور كثافة ولو كان الظلام مطبقا . ما زلت أذكر يد أمي ، إبان الحرب ، وهي تفلي ، في حلكة الظلام شعر رأسي وخياطة ملابسي لانتشال الحشرات المقيتة بدقة ووحشية . كانت يدها تنزل وتصعد فوق بشرتي بلطافة لا تتفطن إليها ولا حتى تحدسها الحشرات الصغيرة رغم أطماعها القاتلة . وغالبا ما كنت أخلد للنوم قبل أن تنسحب أصابعها الحنون من شعري وجسدي المتمتعين بفليها اللطيف .

لقد ورثت يدي هذه المهارة ولشد ما نفعني ذلك ، لأن تجوالنا راكم القمل فوق جسدي . انتبهت إلى ذلك ذات ليلة كنا قد تمددنا كالعادة تحت ضوء القمر . كان الليل لطيفا ، لكنني لم أستطع النوم . وفجأة أحسست بشيء يخمش جلد شعري . بعد ثوان ، عادت أصابعي الصيادة بقملة كبيرة . وسرعان ما تفطنت إلى أن تلك القملة لم تكن وحيدة . لذلك ، دامت الحرب التي أعلنتها على المستعمرة قسطا

طويلا من الليل .

لقد ابتعدنا عن قريتنا كثيرا فخيل إلي الآن أنني غادرت منزلنا منذ زمن غابر وأنني خلقت منذ الأزل لمصير المسافرين . لشد ما يمكن أن يكون العالم شاسعا ، ومع ذلك ، ما زلت لم أغادر منطقة البلد التي يتكلم فيها الناس لغتنا . في يوم من الأيام ، وصلنا عن كتب من روابي جرداء تماما فرحت أقول في نفسي ها هي الصحراء . غير أنني كنت أعلم أن لا شيء من ذلك القبيل يواجهنا .

كانت الحرارة شديدة الوطأة إذ كنا قد ابتعدنا عن الساحل بشكل محسوس وأصبح التوقف المريح والاستحمام في البحر غير وارد البتة . كان لابد أن نواصل صراعنا مع الطريق والشمس . الأشفاق وحدها كانت تظهر لنا كلحظات مباركة ، بيد أنني كنت أتخوف من نزول الليل لكونه يحمل في طياته حزنا يقود إلى الاكتئاب والحيرة . لشد ما أسأم مساء رفقة رابح وعلى إذ تغزوني أفكار مقرفة فيطالعني السجن في منزل شديد البياض أو يداهمني الإحساس بالفلج أو غيره من المعوقات أو يأخذني الهرم فاتحا أمامي أبواب الموت على مصراعيها تسيطر علي فكرة أن ألتحق برابح وعلي فتغلق أمامي أبواب الأمل وأفقد كل سبب بالتشبث بالحياة الدنيا .

مما لا ريب فيه أن جحيم منتصف النهار هو الذي يؤجج في رأسي جميع هذه الأفكار السوداوية التي تطفو مساء على السطح ناضجة وباردة كحقائق يمكن لمسها . ليست الشمس خيرة إلا في ظاهرها ، إذ هي التي تخمر في أعماقنا الأوهام والجنون .

أحب الفصول إلى نفسي الشتاء . إنه الفصل الذي يبرعم البذور ويعيد مفاجأة الأزهار ويوقظ عناصر الطبيعة منها أن تتحرك وتضج ويسوق إلى بيوتنا العصافير النحيفة الهاربة من البرد القارس.

أزهر العشب هذا العام مرتين . في ديسمبر ، حين ولد ربيع غير منتظر في قلب صفاء جاء بعد سقوط أمطار غزيرة وفي مارس بعد هطول أمطار أخرى . لكن لا شيء بقي بعد هذا الازدهار المضاعف . لكأن الربيع والفصول الرحيمة لم تقتطع وقتها المطلوب أبدا في هذا البلد الرازح تحت شمس سائلة .

الشمس تحفر كالمروحة ، تجبرك على الجمود وتودي بك إلى الموت الصامت البطيء . كنا نمشي هربا منها للإسراع بإيقاع الساعات والتعجيل باختفاء العين الملتهبة . مرات تعصرني الشمس بحرارتها حتى أن كل ماء جسدي يسفح وكل أصوات منتصف نهار لا ينتهي تتكالب على طرق أذني وعيني التي وقعت في مخالب رقصة جنونية ، إذ أصاب الصمم الأوليتين وطمس العمى الثانيتين . عندها تأخذني الرغبة في التضرع إلى رحمة دا رابح طالبا منه أن نتوقف تحت ظل شجرة ، كي يمكنني التمدد على بطني للارتواء من الظل والمكوث هناك إلى يوم القيامة ــ إلى أن يقبل موسم الماء والبرودة فيخلصنا من الجحيم .

لكن الدوخة تعبث بأفكاري وتخذل إرادتي . فما يخامر رأسي يواجه مجامر حامية قبل أن يبلغ فمي ويجد عباراته . إذا ، اكتفى بالحلم المكتوم براحة تشبه الموت في ظل منعش لشجرة وارفة لكأنها < ظليلة العالم > ، وعلاوة على ذلك ، فحتى لو نطقت بطلبي ، أيأخذ رابح وعلي بعين الاعتبار بمثل تلك الحجج التافهة الانهزامية ؟ ليس من المعقول أن نتوقف بلا سبب جدي في عز الحر بينما مهمتنا من أنبل المهام وبقايا هيكل عظمي غالي تندب حظها في مكان ما وقد نفذ صبرها في انتظار الأيادي المنقذة التي ستعيدها إلى مناظر الطفولة وصخبها المألوف .

هناك هيكل عظمي ينتظر في مكان ما تقرع له أجراس التشريف لأن الأموات يروننا ويسمعوننا ، فحذار أن نحتقرهم أو ندنس ما تركوه على الأرض للأحياء فيقظتهم وربما جرأتهم تساعدهم انطلاقا من الآخرة.

أحيانا أقول في نفسي ــ ما أتعسكم أيها الأحياء ، فأنتم لستم بمنأى لا عن الكوارث الأرضية ولا عن الزوابع ولا عن المجاعات ولا عن عذابات المحتل الأجنبي ولا حتى عن النظرات المتحرشة لموتاكم أنفسهم ، لذلك ، يفضل الأحياء في هذا البلد أن يتحدثوا عن الموت بشغف . إنه يحميهم من كل تلك الشرور أنا مقتنع أنه لو أتيحت للقرويين إمكانية العيش كالأجانب أو حتى كسكان أنزرو لا غير (المدينة الصغيرة التي عبرناها) لفتر حبهم للموت وربما تخلصوا حتى من التفكير فيها . سيتمتعون فوق الأرض نفسها بتلك المآكل اللذيذة والراحة الأبدية التي وعدوا بها في الجنة . وعلاوة على ذلك ، فإن القرويين يخدعون أنفسهم ،

فأنا أتسائل عن الأعمال التي استطاعوا إنجازها لاستحقاق الجنة هم الذين يرضخون للغش والتحرش والغيرة والقسوة كما أنني لا أرى أيضا لماذا سيرمى بهم في جهنم بدل الآخرين هم الذين يقضون في الدنيا حياة ليست في الواقع إلا جهنم مقنع أني متأكد أن هذا الإحراج ينخر عظام أولي الألباب . إنهم يعلمون أن الجنة ليست مضمونة أبدا ، غير أنهم لا يقرون لبعضهم البعض احتمال دخول جهنم أو حتى الضياع ، الشيء الأشد أشكالا . بيد أنهم يفكرون في ذلك الإعجاب ومثل تلك الغيرة تجاه أولئك الذين ماتوا خلال الحرب . فالمسألة محسوسة بالنسبة لهؤلاء ! الجنة تنتظرهم بأبواب مفتوحة على مصراعيها ، لا لأنهم بدلوا الخير فوق الأرض ولا لأنهم أقاموا الصلاة أناء الليل والنهار ولا لأنهم آتوا الزكاة ولكن لا لشيء إلا لأنهم استشهدوا ذودا عن الوطن . لا ريب أننا نقدرهم هذا التقدير الفائق. حتى يشفعوا لنا بدورهم ، هم الذين يسمعوننا ويروننا ويزنون أعمالنا ، أمام أولئك الذين يحاسبون الأرواح هناك .

غير أنني أعتقد اللحظة ، مع منتصف النهار هذا الذي يركز علينا نيرانه ، أن أكبر حظ ناله أولئك الموتى السعداء هو انفلاتهم من سندان الحر إذ يتفق الجميع على أن الجنة لطيفة الجو مخضوضرة المناظر وبالتالي فهي لا تحرج ساكنيها لا بالبرد القارس ولا بالحر القائظ . فحين ننام ، صيفا ، تحت الأشجار المثمرة على مدار السنة ، تتحول أوراقها إلى مروحات راقصة تهدهدنا بلطافة . يا لها من آفاق مغرية لحسن الحظ أننا لسنا كفارا ، وإنما أنعم الله علينا بالميلاد في كنف هذا الدين الحنيف الذي باركه .

ومع ذلك ، فقبل الوصول إلى هناك ، وأعترف أنني لست مستعجلا أبدا ــ يجب قطع أصياف لا تنتهي تغرقنا بحمم نارية وتعمي أبصارنا أن لم نحتط بشرر معلق الهواء . كان حمارنا يئن إرهاقا رغم تحمله الصبور . كانت خياشيمه تنفتح ليصدر عنها نهيق خافت وكانت حنجرته تطلق بين الفينة و الأخرى أنينا مكبوتا يكاد يكون إنسانيا . على ما يبدو ، كان دا رابح أكثر لياقة . لقد فقد الآن هيبته . أنه ما يزال يحتفظ بهيئة مستقيمة وبخطى ثابتة لا تظهر شيئا من الرضوخ للضغط . ربما لهذا ، لم أجرؤ أبدا على إبداء توسلي عسانا نتوقف للتمتع باستراحة غير

محدودة في ظل إحدى الأشجار ــ حتى يقبل موسم رحيم . كنت أرى رفيقي أبعد ما يكون عن قبول مثل هذه الرغبة فرشاش التأنيب الأخلاقي يتراءى لي من هنا ؛ أنتم شباب اليوم ..... أنا عندما كنت في سنك ..... أو قد لن يفهم طلبي البتة فأتعرض لسيل من السخرية الأبوية التي تستهزئ بالمفاهيم التي تدور بخلدي عن الفحولة والتحمل والمهام الوطنية .

لم أعد أملك لا طاقة جنتي الفيحاء الظليلة في رأسي حيث تخرخر الجداول العذبة وتحف الأوراق الكثيفة وتهب الريح المهدهدة للقصب المورق . وأخذت أفكر في الأشتاء القاسية أحيانا في بلديتنا وفي موسيقى

الريح الحزينة التي تضفي على النوم لطافة فردوسية وفي الزمن الممتد بهلامية تشوبها المنعرجات والتثاؤبات .

غير أن الزمن الذي كان يرهقنا يبعثر ذكرياتي كان يوما في هذا البلد موسم لطف وتسامح ، موسم باستطاعته تسويط الوجوه التي خربها الصيف وغسلها بالماء المتدفق ؟

لم تكن الأرض إلا هيكلا مرتبا مغبرا يتفتت تحت الشمس ، فتذهب خطى المسافرين هباء منثورا كالدخان . أحيانا كانت حوافر الحمار المسمرة تصطدم بالحجارة فتثير شررا فضيا .

وذات مساء ، قطع رابح وعلي صمته الصخري وقال ــ غدا نصل بوبراس . إنها آخر مرحلة نقطعها قبل برج السبع .

2

كانت بوبراس مدينة كالمدن التي لم أتخيلها أبدا . كانت أهم بكثير من آنزرو ولا بد أن جميع الناس الذين يقيمون بها لا يعرف بعضهم البعض . بلغناها عند منتصف النهار وقد كانت الحرارة شديدة . كانت مدينة بوبراس المحاطة بالجبال أشد حرارة من مدينة آنزرو . لكن المرور كان كثيفا في شوارعها رغم الحرارة كان الناس يمشون في كل الاتجاهات وكانت السيارات تروح وتغدو مطلقة العنان

لأبواقها . كيف يتوصل الناس إلى إيجاد اتجاههم في هذا الأقيانوس من الضجيج والحركة؟ الصخب يبعث على دوار الرأس . كيف يرتبون الأمور لملاقاة من يرغبون في ملاقاتهم ويعثرون على الأشياء التي يبحثون عنها؟

لكن الظاهر للعيان فعلا ، أن سكان المدينة لا يأبهون بالضجيج المستمر وبالشوارع المتقاطعة. إنهم يمضون إلى الأمام بتؤدة ، وقد بدا عليهم أنهم يعرفون تمام المعرفة أين يتجهون وفيما يرغبون . لم يكونوا لا محرجين ولا ساهين ولا مزاحمين ولا مشدوهين إلى المنازل العالية والسيارات العديدة والشوارع المتشابهة .

تخلصنا من حمارنا بربطه في زيتونة هرمة بمدخل المدينة. وحسنا فعلنا وإلا لبدونا كحيوانات غريبة وسط كل هذه السيارات الصاخبة وكل هؤلاء الناس أنيقي الهندام ، فقد كان سروالي الذي خاطته لي أمي يظهرني بمظهر غير لائق نظرا لساقه المتدلية قليلا . لو كررنا الحمار لكان الأمر لا يطاق . من حسن الحظ أن رابح وعلي يقتنع أحيانا بالبداهة . أما أنا فكنت مستعدا لإعطاء أغلى شيء من أجل التخلص من ملابسي فأموه هيئتي الريفية ، ضاربا عرض الحائط بوضعيتي وحرجي اللذين يخدعانني ككتاب مفتوح تفترسه أعين المارة. أن تكون كالجميع دون أن تتعرض لذلك البنان المقرف الذي يشير إليك حاملا كل العذابات ، أن تكون كالجميع ، كان أيضا هم رابح وعلي ومطمحه ولكي تبلغ ذلك ولو لحظة ، فإنه مستعد للقيام بكل الأعمال الجنونية لأنني أفهم الآن أنه متجه فعلا إلى إحدى المقاهي بخطواته المتقاذفة شاقا < الغاشي > (الناس) المتمايل في كل الاتجاهات ، وأنا أتبعه مطيعا صاغرا .

هناك متع أرضية لا يوجد لها مثيلا في أي فردوس سماوي أو تحت أرضي . من هذه المتع ، أن تجلس فوق كرسي وتمدد رجليك وتروح تتأمل الحركة الدؤوبة في الشارع ، حيث يشبه الناس ذبابا جائعا .

ما إن أقترب النادل حتى قال له رابح وعلي :

ــ ليموناظة زجاجة كاملة .

ولما ابتعد النادل ، غمزني رابح وعلي غمزة تنم عن تفوقه وقال لي إن طلب

زجاجة كاملة في صالحنا إذ لو قدم لنا النادل كأسا اليموناظة لكل واحد منا ، لدفعنا نفس ثمن الزجاجة الكاملة التي تحتوي على قيمة أربعة كؤوس كنت ظمآنا فلم يسعني إلا أن أمتدح دهاء رفيقي . كانت الليموناظة سكرية الطعم ، لذيذة الدغدغة التي تبعثها في الحنجرة والأنف . كان الوقت متسعا أمامنا للتمتع أطول ما يمكن بالجلوس على تلك الكراسي وقد راحت رطوبة المقهى تنعشنا كما لم ينعشنا أي ظل ، فضلا عن الجلسة الوثيرة التي لا تعادلها جميع الحجارة والسطحات الإسمنتية والسجادات التي سبق لي أن اقتعدتها .

كان الذباب يدور في فضاء المقهى وتحط بين الفينة والفينة على الطاولات ماصة الدوائر المبللة التي تتركها قيعان الكؤوس وكان رواد المقهى يتحدثون عن جلاء الأجانب المستعجل وعن المتاع الذي تركوه وعن فن أن تشتري عمارات ومنازل مقابل لا شيء تقريبا . كان أحدهم يحكي : بمجرد دخولي السيارة ، أبرزت أخمص المسدس من جيبي وما أن رآه ممتحن رخص السيارات حتى قال لي : < أية رخصة تريد ، العادية أم الثقيلة أم النقل الجماعي؟>.

وأردف آخر : كان الله في عوننا حتى لما كنا نموت كنا نموت أتقياء نظيفين مؤمنين أمام الله بينما هم ، كانوا يموتون وسخين إذ كثيرا ما عثرنا على جثثهم مهملة وقد لطخ البراز سراويلهم . كنا نتغذى بالبلوط والعشب غير أننا كنا صامدين ولما كانت المعركة تندلع ، كان دمنا يتحول إلى حمم حامية وسرعان ما كانت صفوف العدو تتساقط كسنابل القمح تحت حشات المنجل .

كان موضوع الحرب التي حطت أوزارها يشكل جوهر الأحاديث ، غير أن رواد المقهى كانوا يتكلمون أيضا عن الوقت الراهن وعن طرق الحصول على أملاك ومناصب في الإدارة .لشد ما كان الاستماع إلى صخب الأحاديث ممتعا ولشد ما كان تخيل الأشياء والأوضاع الهامة التي تشكل موضوعا مغريا. إذا ، هناك فوق الأرض الكثير من الناس السعداء ، الذين يتحدثون عن الشاحنات والدكاكين والعمارات كما نتحدث في القرية عن الماعز والمحاريث الخشبية .

كان الزمن يمضي وكنت مدينا بكثير لرابح وعلي الذي أطال هكذا هذه الاستراحة الفريدة الاستثنائية على كراسي وثيرة قريبة من محادثات تقدم للمرء أكبر متع

هذه الدنيا كما لو كانت أشياء مألوفة عادية . ما أسعد سكان المدينة! إنهم يرتشفون الليموناظة أو الشاي ويتكلمون بأصوات عالية عن أشد المواضيع غرابة ويضحكون ملء أشداقهم دون الخوف من إحراج أحد ما . ما أبعدهم عن تأدب القرويين وحذرهم ، بحيث يجبرون المرء على وزن نبرة صوته وتحديد حركة شفتيه وحساب مواقع خطواته .

لما غادرنا المقهى وقد استراحت قوائمنا وتفتحت أذهاننا ، أخذنا نطوف في شوارع المدينة السحرية التي تعرض دكاكينها من خلال واجهات زجاجية كبيرة مجموعات مختلفة من الملابس و الأدوات والعلب ذات الأبعاد والأحجام المتنوعة والأحذية ذات الأشكال المتفاوتة والجميلة جمالا لا يصدقه العقل . أما الدكاكين الصغيرة فقد كانت تعرض أكداسا من الأشياء الصغيرة التي تستعمل في تزيين المنازل وترقيع الأحذية والمواقد وصناعة الغرابيل وخياطة البرادع والثياب .

مالت الشمس إلى المغيب وتقدم النهار بشكل محسوس فأخذت البنايات والأشجار تمد ظلالا متفاوتة . كان من المريح ، أن يتجول المرء الآن في المدينة ، غير أن وجود دا رابح رفقتي كان يعيقني . لشد ما كنت أرغب في ولوج أحد الدكاكين لأشاهد ــ وربما ألمس ــ بعض السلع الغالية حسب مظهرها . لقد انتبهت إلى أن أطفالا صغارا جدا يسمحون لأنفسهم بمثل هذه المتعة المقدسة . وعلاوة على ذلك ، فهم يتمتعون بالكثير من الأشياء ، هم الذين يمكنهم التجوال وحدهم دون الضياع في شبكة الشوارع والصخب الصمام .

إني لأتساءل ما إذا كان هؤلاء الأطفال مثلي ومثل أصدقائي في القرية ؟ أهم مخلوقون من لحم ودم وحرمان وخوف مثلنا ؟ هل لهم آباء يضربونهم ؟ لا ريب أن أخواتهم جميلات جدا. كيف يأكلون وينامون؟ هل يتغوطون مثلنا بقرف ؟ كلا ، لا أعتقد هذا.

في لحظة من اللحظات ، اقترب من طفلان وأخذا يشيران إلي بالبنان ضاحكين . أوجدا أنني بشوش إذن؟ لشد ما أتوق إلى أن يكونا من أصدقائي ، خاصة أصغرهما الذي يشبه بعينه وفمه وذقنه طفلة جميلة . سأمنح الكثير للعب معه كل يوم وأبوح له كم أحبه ، آخذا إياه من يده وهو يرافقني للعب بالكلل ونصب الفخاخ

. سأريه أحراشا لا يعرفها سواي ، تعج بالعصافير المختلفة . ســأحميه من كل خطر وأغامر بحياتي من أجله وأصارع الناس الكبار دفاعا عنه أو تلبية لرغبته . سار الطفلان طويلا بمحاذاتنا ثم فهمت من طريقة نظراتهما وضحكاتهما ، أنهما لا يريدان بي خيرا كبيرا فانهارت كل مشاريعي العاطفية وأخذت أغذ السير حتى لا أرى هذين العفريتين الصغيرين بجانبي ، غير أن إيقاع خطوات دا رابح ذكرني بالتزام الهدوء وزاد من تعرضي لتحرشات الصبيين اللذين لم أمسسهما بأذى رغم ذلك .

ولما عدنا إلى المقهى التي جلسنا فيها من قبل ، لاحظت أنها أصبحت الآن مزدحمة بالرواد الذين كانوا يملؤون صحنها وداخلها .

قال لي دا رابح : سنجلس أيضا بعض الوقت ، قبل مواصلة الطريق.

اخترنا طاولة صغيرة أخليت للتو . عرج النادل مرتين على دا رابح دون أن يومئ إليه بشيء ، ففهمت أن شرب زجاجتين من الليموناظة في يوم واحد بعيد المنال عن طاقة رفيقي العجوز الذي لم يتجه للجلوس بالمقهى سوى لأنه رأى ازدحام الناس فاستخلص أن النادل لن يلاحظنا كثيرا.

لكن ها هو رجل متقدم في العمر ، يكاد يبلغ الشيخوخة ، يتجه للجلوس إلى طاولتنا . لقد أجال نظره في المقهى ، فوجد أن طاولتنا كانت الأقل اكتظاظا . جلس متثاقلا وشفتاه تغمغمان بتلك الدعوات التقية التي تصدر عن الشيوخ . غير أنه لم يكن يحمل سبحة ، فبدا لي أنه يخالف تلك الموضة الدينية التي حملتها ريح هبت على البلد مشحونة بالبدع. والواقع أن كل من كان يطمح إلى الرفعة الاجتماعية وصعود السلالم الوهمية ، كان يعلق بين أصابعه العرقى سبحة صغيرة ويقضي نهاره في التسبيح بحباتها ، وقد اكتسحت هذه الموضة حتى الشباب والأفراد الذين لم يكونوا يمتون بصلة للتقوى لا من بعيد ولا من قريب .

بعد بضع دقائق ، حاول الرجل العجوز مجاذبتنا أطراف الحديث فقال لنا : في المدينة حركة غير معتادة . أتذكران الهدوء الذي كان يسود الشوارع منذ أسبوعين فقط؟

فأجابه دا رابح:

ــ نحن غريبان .

ــ كيف؟ غريبان؟! أيمكن أن يبقى المرء غريبا في البلد الذي استرجع دين الله الحنيف وأصبح تحت حكم المؤمنين؟

ــ أردت أن أقول أننا عابران ههنا لا غير . لم نصل إلا منذ قليل ، وسنواصل الطريق بعد حين كي نصل إلى برج السبع غدا .

ــ وستسافران ليلا؟

ــ أجل خلال جزء كبير من الليل ، الجو لطيف والقمر البدر يضيء كالنهار.

سكت الرجل بضع ثوان كما لو كان يفكر في أمر مهم ثم قال :

ــ ستنزلان ضيفين في بيتي الليلة ، لقد أنعم الله علي بالخيرات وأريد أن يستفيد منها جميع المؤمنين.

أدهشنا هذا العرض . فأخذ رابح وعلي يفكر في الأمر . والأكيد يريد التنبؤ بطبيعة الفخ الذي يحاول الرجل الغريب نصبه لنا . غير أن وجه الرجل العجوز طيب من الصعب أن يقرأ المرء في ملامحه شيئا من الشر المدسوس. وعلاوة على ذلك ، يكفي أن ننظر إلى أنفسنا جيدا كي نتأكد أن لا شيء فينا يجدب النوايا الشريرة وهكذا قبلنا الدعوة . لقد ملأني ذلك بشعور مضحك ، وبينما انصرف رابح وعلي وموح أبشير ــ أسم ولي نعمتنا ــ لتجاذب أطراف الحديث ، أخذت أفكر في منزل نظيف متعدد الغرف وفي عشاء دافئ لذيذ وفي أشياء مجهولة تكفي مشاهدتها لإراحة النفس . سكنني إحساس كثيف بالأمن والعطش والبرد وكل ما يضر ويؤلم الإنسان . بدا لي العالم لطيفا ، مليئا بالثياب النظيفة الطيبة الرائحة وبالأطعمة اللذيذة والناس الذين يفيضون احتراما وهيبة . لقد عاودني نفس الإحساس الذي كنت أشعر به وأنا ما أزال طفلا صغيرا في تلك الأمسيات الصيفية التي تقطعها تحويمات السمانات ، الأمسيات التي كانت بعبير أريج طيب وقد تيقنت أن رغيفا لذيذا يطزج في بيتنا.

كان الحديث الدائر بين رفيقي في الطاولة يتناهى إلى مسامعي متقاطعا متفاوتا . كان موح أبشير أكثر كلاما من دا رابح .

ــ جميعنا ولد فقيرا وعانى ويلات الحرب . من كان يظن أن أبناء هذا البلد

سيتمكنون من الاستمتاع بجميع هذه الخيرات التي تمنحها أرضه الخصبة بكرم لا مثيل له؟ من كان يتوقع أن تعود إلينا جميع الأملاك الظاهرة فوق أرض بلدنا؟ المنازل التي يسيل فيها الماء من حنفيات سحرية ، ويشتعل النور فيها بمجرد الضغط على زر ، الشاحنات ، السيارات ، الدكاكين ، أي ابن امرأة فكر يوما بأن هذا سيكون لنا؟

سأحكي لك عن نفسي . كنت أسكن قرية على بعد عشرين كيلومتر من المدينة. كنت أملك منزلا صغيرا مبنيا من الحجارة وحمارا وثلاث عنزات . سبق لي أن قلت لك أن ما كان يجعلنا متساوين أمام الله هو عرينا وعذابنا خاصة . لشد ما كنت أخشى أن أموت في هذا الفقر ، إذ ما أقصر الحياة ! ليس للمرء حتى متسع من الوقت للانتقام مما يكبلنا ويحز في قلوبنا . ومع ذلك ، فالله كريم وها هم الأجانب يذهبون دون المطالبة بما تركوه فأصبح كل شيء هنا ملكنا الشرعي . أنا لست من أولئك الذين يترددون، إذ بمجرد إعلان الاستقلال ، اتجهت وابني الكبير ، أعني أكبر ما بقي لي من أبناء وما هي إلا ساعات معدودات حتى بلغنا المدينة فكسرنا أول باب مغلق صادفنا . كانت فيلا جميلة متكونة من غرف عديدة ، أدخل من باب ولا أذكر من أي باب أخرج . ويا ما كان فيها من خيرات ! أسرة خزائن ، كراسي ، طاولات ، أواني .

تركت ابني الأكبر هنا في الفيلا وعدت إلى البيت القروي وفي الغد أسكنت هنا كل أفراد العائلة . بعت الحمار لأحد الأقارب ولكن الوقت لم يسعفني لبيع العنزات فرتبت لها في الحديقة حظيرة بالقصب ولوحات الحديد ، وكل صباح أخرجها ترعى في ضواحي المدينة .

قريبا منها ، فيلا محاطة بساحة لا بأس بها قابلة للزراعة.

لكن الأجانب تافهون ، أزهار وأعشاب طيبة الرائحة ، هذه هي المغروسات التي زرعوها في مثل هذه الأرض الخصبة . لقد بدأت أستأصل كل ذلك وها أنا ذا أعد الأرض للبصل والجزر واللفت وكل الخضروات التي يمكن لتلك الأرض أن تنتجها لصالحي في الخريف.

عندما نزل الليل ، ذهبنا مع موح أبشير ، دخلنا بيته فوجدنا أنفسنا في غرفة

واسعة تتوسطها مائدة طويلة ، حولها وضعت العديد من الكراسي ، غير أن زوجة موح أبشير كانت تجلس فوق بطانية خروف موضوعة مباشرة على الأرض.
كنت أشعر بالاطمئنان بين تلك الجدران الضخمة وتحت النظرات الثقيلة للأثاث الكبير ذي الألوان الغامقة . لست أدري لماذا رحت أفكر في كتاب الصور الذي جلبه أخي من المدرسة في ذلك الوقت ، فطغت على مخيلتي تلك الانطباعات المتسمة بالنقاء والبرودة والتي كانت تصدر عن صفحاته غامرة أحاسيسنا ونحن أطفالا صغارا . وسرعان ما ملأ صبية صاحب الدار الغرفة صخبا .
آن أوان العشاء الذي كنت أنتظره بنفاد صبر ، إذ أن الجوع كان يحفر وديانا طويلة في بطني ورأسي كما أن عقلي كان يسافر إلى تلك الأطعمة اللذيذة التي تطبخ بطرق معقدة على أيدي سكان المدن ورحت أحلم بقطع لحم كبيرة وبالحمص والعدس والدقيق والبيض والفلفل والمرق الثقيل ، الكل ممزوج بطريقة ينتج عنها طعام مدهش اللذة .
إن ما وجدته داخل الفيلا يتطلب عمل مدة ثلاث أضعاف عمري للحصول عليه .
ولكن مثلما قلت لك ، فحين يفتحها الله ، ينزل الخير بلا حساب . كل هذه الخيرات في أيدي الكفار ــ كان ذلك ظلما كبيرا ــ لكن لا بد أن يرجع الخير لأهله . صحيح أن النصارى يملكون متاع الدنيا الفاني ونحن موعودون بخيرات الجنة ، غير أن هناك مظالم لا بد أن تصلح فوق الأرض ذاتها وإلا فقد البشر ــ المخلوقات الضعيفة الفقيرة الغيورة المتشبثة بالفاني ــ عقولهم وحادوا عن طريق الصواب.
لم أجد في الفيلا ما يكفيني غداء فحسب وإنما عثرت أيضا على ما أنام فوقه وأقعد عليه كما يفعل الملوك بأناقة فضلا عن تلك الصناديق الصغيرة ذات الاستعمال المختلف : الأول يصدح بالموسيقى والثاني يصنع الثلج والثالث يغسل الثياب !
غير أن أغربها هو الصندوق الرابع الذي يجعل الصور تتكلم . المرة الوحيدة التي أشعلناه ، أرانا الرجال والنساء يقبل بعضهم بعضا من الشفاه . يا له من دوق خليع منحط يتعامل به النصارى. لما رأينا تلك المشاهد العفريتية ، لم نجد الثغرات التي نمرق منها لمغادرة تلك الغرفة الملعونة . للحظة ، فكرت في أن هذا هو العقاب الذي أرسله الله لاقتحامي بيتا مجهولا . من يومها لم نعد نجرؤ على

الاقتراب من ذلك الصندوق الشيطاني لأننا لا نعلم ما يخبئ لنا .
يمكنني أن أقول أنني محظوظ فعلا . أنت ترى أولئك الذين هجروا قراهم إلى المدينة فأصبحوا معلقين كالعصافير في أجنحة العمارات العالية . أنا عشت قريبا من الأرض وبقيت .
لكن بمجرد وضع العشاء على المائدة ، انهارت كل أحلامي وأطماعي المتخيلة . كان طبقا يتكون من كرات كبيرة من الدقيق مطبوخة في مرق الحمص مثلما تعودت أكله في قريتنا الجبلية .
بعد نهاية العشاء شرع ، دا رابح وموح أبشير في حديث آخر لم أرغب في الدخول فيه . كانت الحرب التي وقعت ضد المحتل تشكل مصدر جميع الأحاديث الراهنة في البلد ولست أدري كيف يمكنني الدخول في موضوع خطير وصعب كهذا . كان رابح وعلي الذي لا يمكن التنبؤ باقتضابه وثرثرته ، بادي الحماس في تلك الأمسية . لقد راح يصف أعمالا لم يقم بها أبدا على ما أعلم ويحكي عن وضعيات لم يعشها بلا ريب إطلاقا . وحدست أنه لا يأتي ذلك للافتخار وإنما للرد على مضيفنا الذي يتقن الكلام .
لقد راح موح أبشير يحكي قائلا : < صعد ابني البكر إلى الجبل مع أوائل المجاهدين . يمكنني أن أؤكد أنه قام بذلك عن صدق وقناعة دون الأمل في مكافأة ومهما كان نوعها ، لأنه لم يسجد أبدا للخالق . كانت قسوة حياتنا قد أضاعته بدل أن تعلمه التقوى . لم يؤمن لا بالجنة ولا بالنار . كان يقول إن المشاكل الحقيقية تحسم فوق الأرض في هذه الحياة الدنيا . اليوم ، لا أعرف حتى المكان الذي دفنت فيه رفاته ــ إن وجد لها أثر في مكان ما ــ . وهكذا ، اطمئن نفسي لكوني لم أفقد إلا ابنا واحدا ، غير أنني لا أقبل أن أفقده من اجل لا شيء . يجب أن آخذ نصيبي من متاع هذه الدنيا حتى لا يتعذب ابني في الآخرة التي لم يكن يؤمن بها . هؤلاء الرجال الذين يتعثرون تحت ثقل نياشينهم والذين يريدون الاستيلاء على كل شيء لا يخيفونني .
لست أدري كيف انتهى الحديث. الشيء الوحيد الذي أذكره أنهم قادونا إلى غرفة أخرى لننام . كانت بها أضواء خافتة وخزانة ضخمة وسرير كبير يشبه شكله

صندوقا كبيرا مفتوحا . انزلقت رفقة دا رابح داخله فاهتزت أطرافه اهتزازا إسفنجيا . لم يسعفني النعاس سوى لتمني ليلة سعيدة لرفيقي وغفوت بسرعة . وفي الغد ، لما دخل صاحب الدار غرفتنا ، وجدنا مستيقظين أصر حتى نشرب القهوة قبل مواصلة الطريق ومرة أخرى ، جلسنا إلى المائدة الطويلة . بمجرد ما شربنا القهوة ، قمنا للسفر . عندها ، أخذ صاحب الدار يفتش في كومة من الأدوات المكدسة في إزار وسخ وسرعان ما أخرج مصباحا جيبيا وقمطرا من اللدائن وناولنا إياهما قائلا :

ــ يجب أن يحسن المرء اقتسام الخيرات التي أنعم الله بها علينا .

3

كان المساء يوشك أن يخيم لما بلغنا برج السبع . كان لقاؤنا العابر بموح أبشير قد أخر برنامجنا بشكل جوهري . كان يجب علينا أن نغادر بوبراس مساء أمس فنمشي ست أو سبع ساعات قبل أن نتوقف لننام.

كانت الشمس ترسل أشعتها بشكل مائل فتدغدغ العيون وكافة الجسد بمتعة. كان الهواء يحمل أريج الزهر الدافئ الجاف . كيف التفكير في هيكل عظمي ، حتى لو كان لأخي ، وسط هذه اللطافة؟ بخلاف ذلك ، يرغب المرء في التجرد من ملابسه ويترك الروائح الطيبة تمسد على جسده وتدلكه كي يتفطن إلى قوته ، كي يحس بأنه حي أكثر من قبل ، كي يتمتع بكل دقيقة من الشفق بهدوئه المخيم في كل مكان .

برج السبع مدينة كبيرة تقع في منطقة جافة . الجبال المحيطة بها تكاد تكون جرداء لو لا البقع الخضراء القزمة الصغيرة التي تبرقعها وقد فصلت بينها فراغات بيضاء كالطباشير . لم أر من قبل منظرا مماثلا أبدا لتلك المرتفعات ذات الرأس المكور المبرقع ، حيث ينشر قروب الشفق نورا أزرقا كثيفا وجامدا باردا كالحجر . كانت الأشجار تكاد تنعدم في المدينة وكانت المنازل كلها عتيقة باهتة، غير أن انعكاس نور المساء كان يطبعها بوضوح ورأفة عابرين .

إرهاقي وكذا تسرعي للوصول جعلاني أجد المدينة جميلة ومريحة . كانت غارقة في الظل ، بيد أن الشمس ما زالت تتثاءب بكسل فوق قمة أعلى الروابي .

كنت أتصور المساء دوما في صورة توقف واستراحة ، ترافقهما نار محتشمة تعد مفاجأة رغيف ساخن وقهوة مدخنة فيفقد الزمن أبعاده المرهقة وأنفلت من كل أنواع البؤس .

هناك مشهد فاجأني في هذه المنطقة : قطعان كاملة من الحمير تسرح بكل حرية وكأن لا مالك لها على ما يبدو . ومع ذلك ، فإن فلاحو جبالنا يتحتم عليهم العمل مدة شهور أو حتى سنوات ليتمكنوا من شراء حمار ! عندما أحكي لهم هذا بعد عودتي ربما لن يصدقوني . كان مشهد كل هذه الحيوانات المتجولة قد طمأن رابح وعلي فقال لي :

ــ يبدو أن الحمير ليست مطلوبة كثيرا في هذه البلدة . يمكننا ربط حمارنا في الخارج دون التعرض للخطر .

دخلنا المدينة من ناحيتها الأقل وعورة . كانت الجبال أمامنا وعلى جنبينا . الجبل الذي يواجهنا يتميز بطلوع هين جدا وقد جعلته لطخات من الصخور البيضاء يشبه حيوانا نائما . إضاءة فريدة تصدر عن سماء هذه المدينة ونورها . صمتها الهادئ يخترق جميع مساماتي ويتململ بمتعة في أعماقي . لقد نسيت تماما المهمة الجنائزية التي أنا مكلف بها هنا .

سكان برج السبع لا يتكلمون لغتنا . فجأة فهمت هذه الإضاءة الحادة وتلك الرقة الغسقية المنبعثة من الهواء : لم نعد بعيدين عن البلد الواسع المغطى بالرمال المبرقعة بالنخيل . لشد ما أتوق إلى رؤية الجمال ولكن للأسف ، لا وجود لها في المدينة .

سأل رابح وعلي أحد المارة عن موقع حمام قريب ثم اتجهنا إلى وسط المدينة المزدحم الذي يشرف على الطريق الواسع الذي دخلنا عبره المدينة . ولجنا بناية تشبه المساجد التي نجدها في المدن نفس باب المدخل الذي يعلوه شكل مقوس ونفس البلاط المزين بزخارف متشابكة في الأرض وعلى الجوانب . الفرق الوحيد بينها وبين المسجد هو انعدام الزرابي فوق الأرض عند المدخل ، استقبلنا رجل

يرتدي قميصا ويلف على خصره قطعة قماش بسيطة ثم تقدم إلى طاولة في المدخل فجلس إليها . تحدث رابح وعلي مع الرجل دون أن أفهم ما كانا يقولان ثم أخرج رفيقي مبلغا من المال وسلمه إلى الرجل . عندها فقط فهمت أننا سنقضي الليل في هذا المكان.

عدنا من جديد إلى الشارع ، حيث كان الهواء يتلطف . ما زال حمارنا مربوطا هناك في المنحدر ، قرب الطريق ، أخذنا من < الشواري > خبزة فرن صناعي وبطيخة كنا قد اشتريناهما من مدينة بوبراس وجلسنا أرضا ورحنا نأكل بنهم . كان المشي والهواء المنعش للمساء قد حفر معدتي . لم أكن بحاجة إلى شرب الماء لأن البطيخة أروت ظمئي.

كان الشارع خاليا تماما . الرجال الناذرون الذين كانوا يصادفوننا كانوا يمضون بصمت ملفوفين في < قشابياتهم > . بدأت أتعب وأبرد ولشد ما فرحت لما تعرفت على باب الحمام المقوس . كان نفس الرجل الذي استقبلنا من قبل يجلس إلى المكتب غير أنه يلف نفسه الآن في إزار كالمعطف ينزل من كتفيه إلى ساقيه . كان يشبه جثة عربيدة يرفض رأسها دخول الكفن .

تقدمنا إلى عمق الحمام فرأيت غرفة شاسعة سيئة الإنارة ، تمدد في أرجائها حوالي خمسة عشرة رجلا فوق حاشيات مطروحات وضعت على البلاط مباشرة . أثر في هذا المنظر بشكل كبير . كنت قد سمعت الناس يتحدثون عن الحمامات ، غير أنني لأول مرة أدخل أحدها . لم يكن هؤلاء الرجال المتمددين أفقيا يوحون لي بشيء من الطمأنينة . جميعهم كانوا يبدون أنهم متشردون بلا مأوى قذفت بهم الأيام إلى هذا المكان البائس . جوارهم يقلقني . أشار إلينا الرجل الملفوف في إزار بمطرحة ذات مرقدين ، فتمددنا عليها بحذر . كانت الأماكن الممتازة التي تحاذي الجدران قد أخذت ، من قبل ، لذلك كانت مطرحتنا التي عينت لنا ممدة وسط الحجرة . إزار بسيط من القماش المتين ، ذلك هو غطاء النائمين ، إذ لا أحد نزع ملابسه . وعلاوة على ذلك ، لا يوجد مكان أو ما شاجب لتعليق الثياب ، فضلا عن انعدام ثقة النائمين في جيرانهم العابرين .

حاولت أن أتغلب على الحرج الذي تخلقه لي هذه الخلطة في المرقد وأن أسدل

جفوني لأنام ، لكن عقلي بقي يقضا محترسا ، فرحت ، وأنا أغلق عيني ، أجهد نفسي في تخيلي وحيدا بمرقدي غير أن شخيرا أو سعالا أو محادثة خفيفة الأصوات سرعان ما كانت تذكرني بالواقع .

كان الجو جد ثقيل، تنبعث منه روائح العرق والتبغ والانغلاق . لشد ما ضغطت على جفوني التي أصبحت تتثاءب تلقائيا كما لو كانت عرضة لدفع نوابض صغيرة جدا ولكثرة ما ململت خيالي ، أصبحت أحس بصدغي يدقان في جنون وبجسدي يرفض عرقا . أنا على أشد الاحتراس . مخاوف من كل نوع تهاجمني . أخذت أستمع إلى تساقط الدقائق كقطرات ثقيلة ومهددة ــ خارجة عن الزمن لشدة بطئها .

أحيانا ، يأخذني النعاس لكن بمجرد ما يجذبني الخوف من خطر ما من إذعاني لدغدغة مهرولة . أيمكنني أن أنام ؟ مهما أجهدت نفسي ، بقيت حواسي متوجسة خائفة ممتحنة . الآن لم يعد النوم هو الذي يشغلني ، إنما شغلي الشاغل هو انبلاج الصباح . ولما كنت قد غفوت عدة مرات ، لم يعد بإمكاني تحديد الوقت الذي انقضى بالضبط . لم يكن ضوء الحمام الخافت والثابت أن يمدني بأية إشارة مميزة . لم يكن ذلك الضوء ينفع إلا لتضبب تقطير الدقائق المعذب لأعماق أمثالي من التعساء . ورحت آمل في تعجيل الفجر بإنقاذي من هذا الكابوس اليقظ.

ولما بدأت أيأس من زيارة النوم لجفوني وفي اللحظة التي قررت فيها أن أنتظر نور النهار بصبر ، وجدتني أهوي باتجاه غفوة ثقيلة أحسست بها تنزل على كامل جسدي كهراوة لا تخطئ .

*****

رأيت نفسي في مسقط رأسي ، وبالتدقيق في حقلنا المسمى بوهارون. كان الشتاء قارسا ورحت أواصل حلما لا أدري متى بدأته . غالبا ما أشعر في أحلامي بانطباع مرهق يتمثل في مواصلة مغامرة كنت قد بدأتها في مناماتي السابقة . هذه المرة وجدتني وحيدا في الحقل . حتى قطيع ماعزنا الهزيل تبخر . ماذا أصنع هنا؟ لم أكلف بأية مهمة ظاهرة . أنا حر كالهواء المثلج الذي يجمدني . غير أنني لم أكن

فرحانا رغم ذلك . وجود خطر وشيك يجعل مذاق هذه الحرية سمجا . أنا متيقن عين اليقين أن أحدا ما أو شيئا ما يطاردني وأنني قدمت إلى هذا المكان لأفلت منه . ورحت أحدق النظر فيما حولي بخوف كبير . أنني أعلم أيضا أنني نصبت فخا للعصافير في مكان ما من الأحراش وأنني مضطر لحراسته ، غير أنني لا أستطيع أن أغامر حتى هناك حيث يجوز أن يكون مطاردي مختبئين . وأخذت أتجول في الحقول وكأنني أنتظر نجدة أو قدوم شخص ما يفهمني جدوى وجودي في هذا المكان . بيد أنني لم أكن أنقطع عن النظر باستمرار تجاه الخرشة (الأحراش) التي نصبت تحتها فخي لم يكن بمقدوري أن أعرف ما إذا كنت أفعل ذلك بهدف حراسة الفخ مخافة أن يسرقه اللصوص أم لأرى منطلق مطاردي.

كنت أجلس تحت التينة المثمرة بـــ < عنق الحمام > ـــ تين بنفسجي اللون طويل العنق ـــ ، حين ملأ بصري شبح يتجه زاحفا صوب الخرشة . للحظة ، تخلصت من خوفي وأخذت أصرخ بقوة في اتجاهه . فقام الشبح = إنه أخي .اتجه صوب وقفتي وقال لي : كنت أريد أن أختبر يقظتك . هناك العديد من لصوص الفخاخ في هذا المكان .

ـــ لا أدري لماذا جئت إلى هذا المكان . لا ريب أن أحدا ما يطاردني.

ـــ كلا لقد جئت إلى الحقل لترى العظايات ولما كنا في موسم الشتاء ، قد يطول انتظارك .

أصبح البرد أشد قسوة مما كان عليه . قديما ، كان البرد يعصر دموعي دوما وأنا أرعى العنزات في هذا المكان ذاته .غير أن مجيء أخي بعث في نفسي الهدوء والسعادة . أحب الشتاء عبر تمزقات الغيوم ، فتنبجس قطع زرقاء من السماء . الآن ، لاحظت أن أعلى قمة في الجبل الذي >يزين< القرية كانت مغطاة بالثلج . بين الفينة والفينة ، كانت الشمس تنعكس على بياضه كما تنعكس على مرآة . أحراش الضرو والمصطكي تبكي بدموع براقة منهمرة كالمطر . إني أسمع بعض العصافير تغني .

من أحد الأحراش ، خرجت فجأة عظاية كبيرة خضراء . كان حجمها غير مألوف ، غير أنني كنت أعلم أنني في يوم غير عادي البتة بحيث لا شيء يدهشني . كان

أخي منزويا قليلا ، غير أنني لاحظت أنه انتبه إلى العظاية لحظة رأيتها . أسرعنا صوب الحيوان الزاحف الذي أفلت منا بخفة ، مارا عبر العديد من الأحراش والجداول وغيرها من تضاريس الحقل ، وهو لا يزال يظهر لنظراتنا ، وسرعان ما بلغ الطريق الصالح للسيارات الذي يعرج على الجهة السفلى من القرية .

هنا ، كانت سيارة عسكرية راكنة. كانت من طراز تلك السيارات التي تسير على مجنزرات والتي لا يمكن رؤية ما بداخلها لانعدام النوافذ الزجاجية على هيكلها . دخلت العظاية السيارة وخرجت بعد بضع ثواني وهي تشهر سلاحا وأخذت تطلق النار باتجاهنا فهربنا لا نلوي على شيء حتى بلغنا قاع الشعبة فاختبأنا ونحن في مأمن من الآلة القاتلة. عندها قال لي أخي وهو يلهث بقوة :

ــ إنها حاقدة علي حتى الموت . هذه هي العظاية التي قطعت ذيلها في الماضي. أتذكرها؟ انتظرني هنا ، سأرى ما إذا تنوي مطاردتنا حتى في هذا المكان . كل ما أنت مكلف به هو أن تحرس فخك وتبقى يقظا ، من يدري ، قد يقع ما ليس في الحسبان ؟.

وذهب منزلقا بين الأحراش كما أتى من قبل وسرعان ما غاب عن بصري فشعرت باشتداد البرد ولم تعد الشمس تلمع فوق الجبل ، بل خبا نورها . فجأة ، صار كل شيء مكدرا وأشد تهديدا : الثلوج التي كانت تشبه ثيابا شفافة تتلاعب بها النسائم اتشحت بأشكال عدوانية ، البرد الذي كان يدغدغ وجنتي بمتعة تحول إلى سوط ممزق ، الأشجار العارية أصبحت تذكرني بطبيعتها المقرفة وقد ازدادت أغصانها صلابة وقسوة .

ولما عاد أخي ، كان صدره وبطنه مدرجين بالدم ، غير أنه كان يمشي كما لو لم يحدث شيء . لم أستطع الانتباه إلى عمق جراحه إلا حين دنا مني. ساعدته على الجلوس تحت التينة ذات الثمار السوداء وجريت إلى القرية .

كان الطريق يبدو لي أطول من المعتاد . وعلاوة على ذلك ، فقد كانت القرية محاطة بسياج من الأسلاك الشائكة فلم أجد ثغرة أمر عبرها . وحين تمكنت من دخول القرية ، لاحظت أن الجامع شاغر وأن البيوت خالية . كان يجب البحث عن الرجال في الحقول . اضطررت إلى الركض في كل الاتجاهات وإلى الاستخبار

والقفز من على الأسوار والسواقي ، كي أتمكن في الأخير من العثور على شخصين لا غير.

فرحت أصرخ فيهما :

ــ أسرعا .

فها هن النساء قد ساعدنني على تركيب محمل ، فأجابني أحدهما :

ــ أتظن أن هذا سينفع لشيء ما ؟ منذ مدة طويلة وأنت تطلب المساعدة ، فهل تظن أن أخاك ما زال حيا ينتظرك ؟ وقال لي الآخر :

ــ سنأتي معك ، لكننا سنفعل هذا لا لشيء سوى لكي لا تلومنا عن تقاعسنا أو تتهمنا بأننا مسؤولين عن مكروه لا ناقة لنا فيه ولا جمل .

من حسن الحظ ، أن المسافة التي تفصلنا عن بوهارون لم تبد لي بعيدة في الإياب كما بدت لي في الذهاب . جريت لاهثا وصرخاتي لا تني تستعجل الرجلين الجاريين في أثري . وحين بلغت بوهارون ، كان الرجلان القرويان قد اختفيا ، ربما لأنهما غيرا رأيهما فتركاني ورجعا إلى القرية . ويا لهول ما رأيت: لم يكن هناك إلا هيكل عظمي يستند على جذع التينة ذات الثمار السوداء...

*****

غادرنا الحمام باكرا . كان نور الصبح المنبلج مصفرا فوق قمم الجبال الصغيرة ومحمرا قليلا كلما تابع بصري أعالي السماء من ناحية الشروق . توقفنا في إحدى المقاهي ، غير أنني لم أجد أبدا ذلك الإغراء السحري الذي أحسسته في مقاهي بوبراس المريحة . صحيح أن رائحة القهوة التي كانت تملأ المحل الضيق ، كانت تشنف أنفي ، غير أنها لم تخلصني من الحزن الثقيل الذي كان يؤزمني منذ استيقاظي ، تبادل رابح وعلي بعض الجمل مع صاحب المقهى ، ثم خرجنا إلى الشارع . فقال لي رابح وعلى : سنذهب إلى شخص يعرف مكان القبر .

في الطريق ، سألنا أحد المارة عن الاتجاه فأرشدنا إلى منزل منخفض ، يكاد يكون شبيها في انخفاضه ببيوت قريتنا . دق رابح وعلي رتاجا خشبيا مخلخلا ، ففتح عجوز قصير بعد ثواني قليلة. تحدث إلى رابح وعلي طويلا ففهمت أنه يدعونا إلى

تناول القهوة في بيته . فرفض رابح وعلي دعوة الشيخ العجوز بأدب متذرعا بضيق الوقت ، عندها دخل الرجل بيته من جديد .

التفت رابح وعلي إلي وقال : إنه يقول أنه ساعد على دفن العديد من المجاهدين الذين سقطوا برصاص الاحتلال ولكنه لا يتذكر أسماء كل المدفونين . إنه يعرف أماكن بعض القبور وسيريها لنا .

ثم خرج العجوز مرة أخرى وهو يرتدي قشابية بنية اللون. لاحظت أن أحدى عينيه تشبه بصقة ملوثة بالدم الخاثر واندهشت لكوني لم انتبه إلى ذلك العيب من قبل فاستولت علي شفقة محزنة لأني أعتبر دوما أن العين هما نور الحياة في الجسم . وفهمت وقتها لماذا يهتم العجوز بالأموات ، إذ لاشك أنه يشعر بقربه منهم .

كان الطقس ما يزال باردا نسبيا . اتجهنا إلى مربط حمارنا وما إن وصلنا المكان ، حتى خلع رابح وعلي شاشه فبسطه على الأرض وصلى الصبح . ثم سار العجوز أمامنا حتى غادرنا المدينة .

ومشينا وجميع الألوان المغراء والحمراء والبيضاء المتفجرة من الأرض والرمال والجبال تجري لاحتضاننا . أمامنا ، كان رجل يسوق قطيعا ضخما من الغنم ، يرافقه خمسة أو ستة كلاب في تموج بطيء متراص . لم أر أبدا عدا كهذا من الغنم المجتمعة .
وصعدنا وجميع الروابي الخضراء والبيضاء تقترب منا . وانتبهت إلى أن البقع الخضراء التي كانت تطالعنا ونحن في المنخفض ، كأشجار قزمة وأحراش كثيفة لم تكن متقاربة كما بدا لي وإنما متفرقة تفصل بينها فسحات جرداء واسعة . هذا البلد عرضة لجفاف كبير .

وأخذت ريح ساخنة مقرفة تهب بخفة فأثارت للحظة غبارا وسخا غشى كل الألوان الفاتحة . فجأة ، توقف دليلنا العجوز وراح ينظر حواليه مترددا ثم نادى راعيا كان على مقربة منا . تحادثا الرجلان ودا رابح بعض الوقت ثم أخذا من >الشواري< الرفش والمعول . دقت ساعة الحقيقة وأخذ قلبي يدق معها بعنف وراحت أحشائي تتلوى بألم ممعض . كنت أحب حفر التربة دوما ولكن في مناسبات أخرى ، لإخراج الخرانق الصغيرة من جحورها .

لكن دا رابح خلصني من كابوسي ، حين أخذ المعول وراح يحفر الأرض مشيرا إلي بإزاحة التراب بعيدا . من حسن حظنا إن التربة لم تكن قاسية . كانت خليطا من الأرض المغراء والرمل المحي وكانت هشة تتفتت بسرعة تحت ضربات المعول . غير أن الريح الساخنة سرعان ما أخذت تهب مسوطة وجوهنا بالغبار الذي يلتصق بالعرق المرفض من جسدينا .

أخذ الدوار يهصر رأسي وذراعي الهشتان تعملان الرفش في التراب المتراكم فرحت أقول في نفسي أننا في حلم قد يكون تتمة لذلك الحلم الذي رأيته البارحة . كل شيء كان يبدو غير واقعي : الشمس التي تهوي بأشعتها النارية على الرأس ، انعكاس النور المعمي على الحجارة ، الحفرة التي تتعمق تحت نظراتي المضببة ، الأغنام المشتتة هناك في الأسفل كسحب صغيرة ، هذا العجوز ذو الوجه المعروق الذي يتكلم لغة أجهلها . انتظرت وقلبي ينبض بقوة ويداي تنشطان بلا إرادتي كمراوح تدهشني بدورانها ، انتظرت أن يخبو الحلم فأعود أخيرا إلى كل ما يجسد واقعي ومحيطي الملموس ، جامع القرية وشيوخه ، الجبال العالية المخضوضرة التي تنافس البحر ، قطعان الماعز الشرسة والألعاب التي تنمذجها المواسم .

غير أن الحفرة ههنا ما تزال تعمق باطراد . وفجأة ، اصطدم معول دا رابح بشيء محدثا صوتا مغموما فثريت في الحفر هذه المرة ، وشرع يزيح التراب بيديه . انحنيت لأرى فقلدني العجوز الأعور . صعد قلبي النابض بجنون إلى حنجرتي

وأخذ يدق بلا انتظام خانقا أنفاسي . الفراغ على كل شيء في رأسي ورئتي وقلبي باستثناء بطني الذي رضخ لكتلة عصبية أخذت تهصر بوجع ممض . ثم انهارت كل تلك الدهشة اللاواعية . ظهر عظم ثم آخر وفجأة برزت الجمجمة وهي تنابزنا بأسنانها العارية . تناول دا رابح الجمجمة بين يديه ثم نهض وراح ينظر إلينا كالمبهوت . لم تكن إحدى أسنان الفك العلوي كالأسنان الأخريات . كشطها دا رابح بظفره فكانت من فضة .

ــ على ما أعلم لم تكن لأخيك سن من فضة أبدا؟

فأكدت قائلا : كلا !

ثم التفت إلي العجوز الذي كانت عينه السليمة من جهته ، فأسرع الدليل إلى تهدئتنا .

ــ يوجد قبر آخر على ذلك المرتفع القريب . دفنا مؤمنين يوميا . كل على حدا ، في المكان الذي استشهد فيه .

رأى دا رابح الكآبة التي تغشى وجهي فترجم لي قول العجوز فورا .

ارتحنا بعض الوقت ثم رتبنا أدواتنا . كان الحمار قد عثر على خميلة زعتر لا تعوض ، فحرن ولم يرغب في ترك الأكلة اللذيذة . استعملنا القوة لدفعه باتجاه الأرض والحجارة العاريتين اللتين تكتسحان الأعالي بينما عيناه الدامعتان لا تنيان تلتفتان إلى الخلف.

أخذ النهار يزداد حرا بينما لم يكن يحيط بنا غير أشجار مكلخة عديمة النسغ والظل . صعدنا بصمت باتجاه قمة الجبل الملساء السهلة البلوغ . وبغتة ، توقف العجوز ووضع خيزرانته على كثيب صغير . وفهمت من حركاته ورعدات شفتيه أنه كان يظن أن موقع القبر كان قريبا من قمة الجبل . غير أننا صممنا مع ذلك أن نتأكد من الأمر . هذه المرة ، أصر العجوز على مساعدتنا فأخذنا نتبادل الرفش والمعول . كنت قد ظننت أن الهواء سيتلطف مع صعودنا الأعالي ، غير أن هذه

الجبال تختلف عن الجبال في مسقط رأسي فكأننا لا نزداد إلا اقترابا من الشمس. ورحنا نحفر التربة بحذر اقل وبتقوى أقل من السابق . من الآن فصاعدا ، أصبح همنا الوحيد أن ننهي القضية في أسرع وقت فنستخرج ذلك الهيكل العظمي المستهزئ ونوثقه برزانة مودعين عظامه في كيسنا حتى نتخلص منه نهائيا .

تسطح الكثيب ثم تقعر مع تراكم التراب على جانبيه . أخذت الآهات تند عن دا رابح محملة بالإرهاق ووشوك اليأس . هل استولى عليه العياء أم الغضب ؟ وفجأة ، ارتسمت على وجهه تعابير محيرة ، تمتزج فيها الدهشة والفضول والارتياب . أخذ يزيح التراب بسرعة جنونية . أسرعت لأرى قاع الحفرة فصفرت مفتوح الفم عند قدمي دا رابح ، كان يرقد هيكل عظام حيوان . لا أدري أكان كلبا أم ذئبا . لا ريب أن راعيا التزم بدفن كلبه تقديرا لخدماته الجليلة .
هذه المرة ، لم يكن الدليل العجوز يائسا كما كان من قبل . هذا الاكتشاف ليس إلا تأكيدا لحدسه . إنه يدعم تخميناته فالعظام التي نبحث عنها ترقد فعلا في مكان أعلى من هذا كما توقع .
وصعدنا ونحن نقاوم حنقا مكتوما . كان الحمار يتبعنا دون أن يكركره أحد أو يدفعه . لقد فقد الحمار الفخور لعلى أماووش خصاله المميزة . ضاعت هيئته الدالة على أنه حيوان معتنى به أشد الاعتناء . تناثر < سبيبه > عرفه وتدلى لسانه ورشحت خياشيمه مخاطا ، فبدا أنه رضخ لهذا القدر الذي يثقلنا وراح يكركر حوافره منكسا أذنيه دون أدنى محاولة لفهم ما يجري حوله . لا ريب أنه يعرف أن أسوأ الأشياء قد تحدث ، منذ أن كركرناه بعيدا عن خميلة الزعتر.

وحين بلغنا الحدبة الترابية الأخيرة ، جلسنا لاستعادة أنفاسنا . لم يكن رابح وعلي يشعر بأي استعجال للحفر . وهكذا ، وضع مطرة الماء قربه وراح يتجاذب أطراف الحديث مع العجوز ، أما الحمار ، فقد عثر على خميلة عشب هزيلة ، فمضى صوبها آخذا أدوات الحفر معه في الشواري. أنا أيضا فتر اهتمامي بهذا العمل المقرف . كل ما أطلب : مد هزيل من الظل يقي جمجمتي شر الحر الشديد .

كان رفيقي قد انتعشا إذ يبدو أنهما يتحدثان عن أشياء ليست محزنة البتة لأن رابح وعلي نسى نفسه فجأة فندت عنه قهقهة مجلجلة . وسرعان ما التفت جهتي باستحياء وندم ثم لزم صمتا محرجا . وكأنه أراد تغطية زلته ، فقام واتجه إلى الحمار لجلب أدوات الحفر. وبدأ النبش من جديد .

هذه المرة ، أخذنا نحفر بحذر وببطء ــ وحتى باطمئنان حسب شعوري . صحيح أن الشمس كانت ترهقنا غير أننا كنا متيقنين أننا بصدد العثور على الرفات الصحيح . وهكذا أردنا أن نستمتع بلذة رؤية هذا اليقين يتخذ شكله فرحنا نؤخره ونرجئه حتى تكون المتعة أروع . ولكن ، ما أن ثنى رابح وعلي يخرج العظام الأولى بأصابعه ، حتى ازدحم كل دمي في قلبي ووجهي وأخذ صدغي يدقان بعنف وطفقت أذني تئزان أزيزا مدوخا . وغرقت متخاذل الركبتين في كآبة وحيرة لا مثيل لهما . هل سيستولي علي الآن ذلك الضعف البليغ طالما خشيته في البداية والذي ظننتني قد تخلصت منه؟

وأجلت البصر وقلبي ينبض نبضات تكاد تفجره . هو ذا الهيكل العظمي قابع في قاع الهوة غير مبال بتأثرنا وتعبنا ، وفكا جمجمته المفتوحان يبدوان وكأنهما يستهزئان منا أو يبتسمان لنا . لا أدري. الذي كان كتوما على قيد الحياة ، هيكل عظمي ضاحك الآن.

هي ذي العظام بحوزتنا الآن . إنها ترن كقطع نقدية كلما تعثر الحمار أو خبا عبر الطرق الوعرة . آخر الصراصير والقبرات ذات الصدح الكئيب ترافقنا عبر الحقول الصامتة التي صلاها أغسطس . لم تكن إلا لطافة المساء وحدها تبلسم حرائق

المسار .

الشيء الرائع في السفر هو أن تذهب وبخلدك يمور ما لا تتوقع . غير أن العودة انهزام . لم أفكر في كوني سأتغيب عن قريتي كل هذه المدة ، بيد أننا ما إن غادرنا برج السبع حتى تراءى لي مسقط رأسي بتقشفه وانكماشه كما لو كنت أذرع أزقته المتثعبنة . لقد تبين لي أن قريتي سجن حقيقي بعد أن اكتشفت قرى أخرى وحتى مدنا. العالم واسع فعلا وبعض الناس يعيشون فيه سعداء . كيف يمكن الإصرار إذن على تصديق جميع أولئك الشيوخ الذين يتمسكون بزعم تافه مفاده أن الأولياء الصالحين يحمون بلدتنا؟ تبا للأولياء الصالحين أليس بمقدورهم أن يمكنوننا من أن نشبع أكثر في أغلب الأحيان وأن نرتدي ملابس أفضل من ملابسنا الرثة؟ ورغم ذلك ما أكثرهم، سدي محمد ونجلاه ، سيدي عبده المولد في القرن الخامس ، سيدي محرز ذو الحزام الذهبي ، سيدي يحي حامي السواحل، غير أن انطباعا غريبا يراودني : الأكيد أن مهمتهم الأولى هي مهمة الجلادين بدل الأولياء : هم، ههنا لا لشيء إلا لكتم رغباتنا وتكبيل تحركاتنا ومنعنا من تمطيط قوائمنا ورفع نبرات أصواتنا . إنهم حراس المشيئة القائمة ، تلك هي مهمتهم لا غير .

إن هذه الأفكار التي رحت أجترها طوال تلك المسافة المسئمة هي التي تمنعني من أن أعتبر هذه المهمة المنفذة لفائدة العائلة والموت عودة منتصرة ، لأختين التوأمين اللتين تكبلان بوسوستهما كل طموحاتنا.

أية خدمة قدمناها لأخي بجلب عظامه معنا؟ أليس الأهم بالنسبة إلينا أن ندفنه مرة ثانية ــ وبعمق أكبر ــ حتى لا تخول له نفسه التجرؤ على إقلاق سلمنا وضميرنا المرتاح؟ كما لو كنا غير متأكدين من كونه قد مات فعلا ما دمنا لا نرى ليل نهار هذا القبر المطمئن لقلوبنا .

لو تمكن أخي من التعبير عن وجهة نظر ، هل كان سيرضى بهذا الترحيل ؟ كان سعيدا وهو ينام قبالة جبل درياح في تلك الأرض المجرة كالخلود! وها نحن نأتي به أسيرا ، موثوق العظام بشدة ، إلى هذه القرية التي لم يحبها بلا ريب أبدا .

لما غادر القرية متخذا قراره الحاسم في تلك الليلة ، كان يعلم ــ أنا الآخر متأكد من ذلك ــ أنه مقبل على سفر تؤكد أهميته أن لا رجعة بعده .

غير أن تكالب العائلة أشد ضررا من جميع زبانية جهنم، فالعائلة تطاردك وأنت حي وتضاعف العراقيل ومكبلات الصوت وبمجرد ما تدفع بك إلى القبر ، تروح تطالب بحقوق صارمة على رفاتك . أريد أن تبحثوا لي عن بلدة لا يحق للمرء حتى التصرف في عظامه بحرية ! يموت المرء وفي اعتقاده أنه ترك والدين لا يمكن مواساتهما ، فإذا بهما نسران لا يشبعان يطاردان عظامه كما لو أنهما يتكالبان على استخراج آخر بقايا نخاع الرفات . ما أغرب هذا البد ! من جهة ، يحترم أهله الموتى بلا تواضع كما لو كان ذلك سببا لتبرير الحياة المستحيلة التي يفرضونها على الأحياء ومن جهة أخرى ، يستخرجون رفاتهم ليتأكدوا ما إذا لم يكن بمقدورهم سلبهم شيئا آخر قبل أن يعيدو دفنهم في قبور أعمق من القبور الأولى ، هناك ، حيث لا يمكن حتى لذكرى أن تعثر عليهم .

إن الشهور التي انقضت أخيرا كشفت أشياء كثيرو كشفا بينا : لقد عرت نفوس الأحياء وقذفت إلى الشارع كل النتانات والأطماع الرذيلة كما عجلت مرور الزمن كساعة جدارية مسها جنون.

كانت الحقول المحروقة تتوالى على طريقنا . لم تكن للصيف إلا رائحة واحدة : هي رائحة نار يستحيل إطفاؤها ، تحترق في لهيبها الأعشاب والحشرات .
كان الفلاحون القلائل الذين صادفناهم في طريقنا يشبهون بنحولتهم وقبعاتهم التبنية الظليلة جذوع أشجار محروقة فتخالهم أنهم لن يتجاوزوا بعض الخطوات

فينهارون على الأرض بثقل كتلك الحشرات المضروبة بالشهب النارية والتي نعثر على بقاياها الهشة على الحجارة وجذوع الأشجار .

كانت عودتنا عودة خالية من المجد بالرغم من الغنيمة التي نحملها . الإرهاق وحده هو الذي كان يفرض ثقله أما باقي الأشياء فلم تكن سوى لمسة عابرة . كان كل العنف الذي راكمه السفر في جسده يشكل كتلة دهماء تكبل قوائمي ورأسي . قديما ، كنت أتوق إلى مثل هذا النعاس وهذه الراحة وهذا التثاؤب ، حين كنت ألجأ صيفا إلى منزل عمي أحمد ، حيث كان هناك منبها يدق قاطعا الصمت المخيم في الجو ومالئا فراغ الجدران الناصعة البياض التي كان يتمسح بها قط سمين في صمت مخملي . هل توجد قطط بكماء؟ مهما يكن ، فأنا لم أسمع هذا القط يموء أبدا . كان عمي أحمد هو القروي الوحيد الذي يملك منبها على ما أعلم . وعلاوة على ذلك ، لم يكن له أطفال مما يجعل منه رجلا مضاعف الغرابة . الأكيد أن وضعيته تلك هي التي ميزت بيته بتلك النظافة وذلك الهدوء . كان الناس يعتقدون أن ذلك البيت ملعون لا ترتاده إلا الأرواح الشريرة إذ علموهم أن الملائكة لا تزور إلا البيوت التي تطربها صرخات الأجنة. ربما كان عمي أحمد يفكر كما القرويين ؟ غير انه لم يفصح عن ذلك أبدا لأنه فخور أنيف يتميز بسلوك عصبي هدام مما جعل أشد القرويين جرأة يهابونه . والواقع أنه رجل طيب جدا وكريم جدا ــ كنت أشعر بذلك كلما لجأت، صيفا ، إلى هدوء بيته الناصع البياض ، وذات يوم ، عبر ذهني سؤال : لماذا لا يطلق هذه المرأة التي لم ترغب في إنجاب أطفال يسعدونه؟ كانت النساء العاقرات في بلدتنا يطلقن بسرعة ويرجعن إلى بيوتهن . ربما هذا هو السبب الذي جعل القرويين يشمئزون من عمي : لماذا لم يكن يحترم هذه القاعدة الابتدائية التي تحرص على حقن الجماعة بدم جديد دوما ؟ غير أن عمي كان يضرب عرض الحائط بأفكار القرويين ، فهو يتقن صناعة أشياء كثيرة بيديه الماهرتين مما جعله يأنف أن يطلب خدمة من أي كان ، بل خلافا لذلك ، كان الآخرون هم الذين يحتاجون مهاراته . عندها ، كان يقبل مساعدتهم بحنق ، مما جعله يهدر العديد من المناسبات التي يعبر له فيها الناس عن اعترافهم بجميله

وشكرهم له .

بيد أن عمي لم يكن تعيسا . بل انتبهت الآن إلى أنه يملك ما لا نملكه نحن ومن بينها أنه غير معني بالبحث المقرف عن العظام . فهو لا يقلقه أي هيكل عظمي مسمم أو يقض مضجعه ويجعله يجري عبر الجبال والوهاد . فرغم غضبه الدائم والخوف الذي يبعثه في كل من يواجهه ، ربما كان هو الحكيم الحقيقي في القرية . نظرا لرابطة الدم التي تربطنا ، كانت له أولوية مرافقتي عوض رابح وعلي ، غير أنه لم يبد عليه أبدا أنه يولي أهمية جدية لكل هذه الحكايات المبنية على الهياكل العظمية .

في طريق عودتنا ، عبرنا نفس القرى والمدن التي مررنا بها خلال ذهابنا ، بيد أننا عرجنا عليها هذه المرة بلا استعجال ولا حماس . لم يعد ظمأ اكتشاف أشياء جديدة وطموح القيام بمهمة مهيبة اللذان يحمسان همتنا بادئ الأمر ، يشدان نظراتنا وينشطان إرادتنا . لم نتوقف في أي مكان يذكر أكثر من ساعة صغيرة وإنما كنا نكتفي بالوقت اللازم لشراء رغيف وبعض الفواكه . كنا نتحايل قدر المستطاع حتى نتجنب أشباهنا كما لو تحولنا من باحثين عن عظام إلى لصوص عظام .

خلال الطريق ، فاجأني إحساس غريب مفاده أن العظام المودعة في < شوارينا > ربما كانت عظام غريب يمكن لوالديه الحقيقيين أن يطاردانا لاسترجاع رفات ابناهما . أردت أن أبوح بمخاوفي لرابح وعلي وأن أطلب منه أن نغذ السير حتى لا يلحق بنا أحد ، بيد أن الزمن لم يكن يشجع على الجري أبدا . لقد كنا نتلقى الشمس عموديا وكانت أرجلنا متخاذلة كقوائم الحيوانات التي يراد تشديد حراستها فتوثق من مرابطها بقوة .

يقال في قريتنا عن الإنسان الذي لا تحركه الأحداث ، اللهم ابعثه حمارا في الآخرة

! مما لا ريب فيه أن هذا الدعاء قاس ، بيد أن وضعيتنا الراهنة لا تجعلني أرى فارقا بيننا وبين حمارنا . هو الذي يحمل العبء ولكن ثقل الهيكل العظمي يرهق أكتافنا ورؤوسنا . لشد ما أجهدت نفسي في محاولة التفكير في شيء آخر ، كالجبال التي تطالعنا أو القبرات التي تطير من بين الحجارة أو القرية التي تقترب مثلا ، غير أن عقلي لا يني يصهر العظام ويعجنها كما الطاحونة التي لا تتعب . دا رابح ذاته الذي اشتد صمته أكثر مما كان خلال رحلة الذهاب ، يبدو غارقا في آفاق ليست أشد حماسا من آفاقي .

لكأن هذا السفر عجل بشيخوخته سنوات عديدة . لكثرة ما يسمع المرء طقطقة العظام لأيام وأيام ، ينتهي إلى مساءلة نفسه ما إذا كان هو ذاته يملك قليلا من اللحم فوق عظامه . إني أعرف أنه رأي الموت لا يعنيني ولكن دا رابح لا يفكر مثلي بالتأكيد . لا ريب أنه رأى في هذه الكومة من العظام التي التقطناها بأيدينا فسكنت خيالنا ، رأى عظامه ذاتها وقد مزقتها عربدت الزمن ثم رتبتها فوضعت الجمجمة بين الفقرات ولوحات الكتف المتشردة التي تدحرجت لتنام في كنف الخضر . لقد رأى فعلا تلك العظام تنفصل عنه كما سيحدث له يوما بالتأكيد .

ذات مرة سألني على حين غرة :

ــ أتظن أن الموت إنسان نبيل ؟

هنا ، لم أجد ما أجيب به ، أذ كان علي أن أتأكد أولا إن كان الموت إنسانا فعلا .

وفهم حرجي فواصل كلامه :

ــ هناك أشياء يصعب علينا فهمها نحن البشر المخلوقين من طين . أنظر . مثلا ، عزرائيل ، الجلاد الذي يقهر بهراوته الأرواح الملعونة ، أتعرف أنه ملاك ؟ أجل إنه ملاك مثل الملائكة الآخرين الذين يحموننا بحنان يفوق حنان الأمهات . هناك ضمن الذي فرضه الله أشياء كثيرة مدهشة ! لهذا ، تراني أتساءل إن كان الموت إنسانا نبيلا ، ولم لا ؟ أتعتقد أن في ذلك تناقضا مع المهمة التي كلفه الله بها؟ كلا ، لا تناقض في لك ، إني أتخيل الموت الذي يداهمنا كما أتخيل أي ضيف إلهي يطرق بيوتنا . فالموت لا يأتي بأية حركة قد تلفت بشكل واضح . يجلس بجوار

صاحب البيت على بطانية خروف أو على مخدة . يتناول القهوة بلا تملق . ثم يقول لك في خضم حديث ممتع وبنبرة طبيعية جدا: < أنا الموت> . ثم يردف حتى لا تهلع : << أوه ! لست مستعجلا كثيرا . حضر حقائبك ببطء وتؤدة وودع أعز الناس إلى قلبك . إنه سفر كالأسفار الأخرى ، باستثناء كونه بلا عودة >>.

وسكت رابح وعلي . إني أعرف أنه سيلتزم الصمت لمدة طويلة إذ أنه أخرج من أعماقه السحيقة تلك الأفكار التي قضت مضجعه أياما طويلة .
وصلنا مستوى قرية أيفرقان . كانت معلقة في أعالي الجبال ، بين صخور أضخم من المنازل . كان الوادي الذي يشق مجراه سفح الجبل ، ما يزال يحتفظ ببعض البرك التي يتلألأ ماؤها تحت الشمس كالمرايا . هذا هو الوادي الذي يلتقي بواد أزرزور ، قريبا من قريتنا حيث ينتهي المصب على البحر.

هذه الليلة آخر ليلة نقضيها في العراء . توقفنا وقت الغروب ، قبل موعدنا المعتاد بشكل واضح ، قرب زيتونة ضخمة تشكل كثافة أوراقها سقفا طبيعيا حقيقيا .
أرحنا الحمار من بردعته وحمله ثم انحدرنا إلى مجرى الوادي . كان لون الماء أخضر شفافا يكشف عن قاع رملي وكان نور الشفق لطيفا باهتا . شمرت على ساقي وغطست قدمي في ذلك الماء العذب فإذا إحساس ممتع بالبرودة يتصاعد عبر رجلي عابرا عمودي الفقري وباعثا في جسدي كله رعدة باغتتني بادئ الأمر ثم سرعان ما رحت أستمتع بدغدغتها . سكتت آخر الطيور عن الغناء مخلية الجو للأصوات أو المتقطعة للحشرات أو العضايات الخائفة أو العاشقة . كان الماء الأخضر يتموج بلطف بين ساقي . غدا ، سنرى البحر الذي ينزل على الأفق ستارا أزرق .
لو لم يكن الزمن ليلا ، لأرسلنا البصر هناك في الأعالي ، علنا نرى قريتنا. غير أنني لست بحاجة إلى تدقيق النظر ، إذ أنني متيقن أن القرية ما تزال قائمة لم تتغير في غيابنا وقد راحت تكتم أسرارها وتبحلق بأعين باردة كالصخر الذي يجعده أي صيف ، ما تزال هناك في الأعالي ، مواجهة حيرة السائلين بنفس

الصمت المصدوم الأبدي الذي يدمي الجراح.

إن قطع المسافات الطويلة وعبور القرى العديدة يكشفان لك أشياء غريبة وقاسية كانت كامنة في عمقك وفي أعماق أمثالك من البشر . تمددت رفقة رابح وعلي ، في صمت ، تحت الزيتونة ، بينما كانت السماء تتبرقع ببقع ضوئية جديدة . حتى الفرح الطبيعي جدا بالعودة إلى مسقط رأسينا بعد غيبة طويلة كهذه ، كان يبدو لنا غريبا .

كم من ميت ، في الواقع ، سيعود غدا إلى القرية؟ إني متيقن أن أكثرنا موتا ليس هيكل أخي الذي تطقطق عظامه في الكيس بغبطة لا نفاق فيها . ربما كان الحمار السخي الجهد والنهيق هو الحي الوحيد الذي تعيده قافلتنا إلى القرية .

ا نتهت

يناير 1983